حول الآلـهة والكون

سالوستيوس

ترجمة وشرح

طوني "أدون" صغبيني

حول الآلهة والكون
سالوستيوس

ترجمة وشرح
طوني "أدون" صغبيني

περί
θεῶν και Κόσμου

(peri Theon kai Kosmou)

2022

الفهرس

مقدمة المترجم.. 4
حقائق الأسرار.. 7
حقيقة الكون.. 7
طبيعة الآلهة.. 9
الغاية من الوجود.. 12
مخطوطة حول الآلهة والكون (سالوستيوس).. 16
I. عمّا يجب أن يكون عليه المريد، وفيما يتعلّق بالتصورات العامة.. 16
II. الآلهة أزلية، غير متغيّرة، غير مولودة، غير مادّية وغير محصورة بالفضاء... 16
III. حول الأساطير؛ إنها مقدّسة وأسباب ذلك... 16
IV. عن أن أنواع الأساطير هي خمسة، مع أمثلة لكلّ منها.. 17
V. حول السبب الأول.. 20
VI. حول الآلهة الكونية والمتجاوزة للكون.. 20
VII. حول طبيعة العالم وأزليته.. 21
VIII. حول العقل والروح، ولماذا الروح خالدة... 23
IX. حول التدبير الإلهي والقدر والنصيب.. 24
X. حول الفضيلة والرذيلة.. 26
XI. حول التنظيم الاجتماعي الصحيح والخاطىء.. 27
XII. في أصل الأشياء الشريرة وكيف أنه لا يوجد شرّ أصلي في العالم.. 27
XIII. حول كيف صُنعت الأشياء الأزلية.. 29
XIV. ماذا يعني أنه رغم أن الآلهة لا تتغير، يقال أنه يمكن إغضابهم أو إرضائهم... 30
XV. لماذا نعطي عبادتنا للآلهة فيما هي لا تحتاج شيئاً... 31
XVI. حول الأضاحي والعبادات الأخرى، وكيف أننا نفيد الإنسان بذلك، لا الآلهة... 31
XVII. حول أن الكون هو بطبيعته أبدي... 32
XVIII. حول لماذا هنالك رفض للآلهة، وأن الآلهة لا تنزعج من ذلك.. 33
XIX. لماذا لا يتم عقاب الخطأة بشكل فوري... 34
XX. حول تقمّص الأرواح، وكيف يقال أن الأرواح يمكن أن تتقمّص في الوحوش البرّية.. 35
XXI. حول أن الأخيار سعداء، الأحياء منهم والأموات.. 35

مقدمة المترجم

هذه المخطوطة التي تتصفحّها الآن عمرها 1650 عام تقريباً، وهي من الكتابات النادرة التي وصلتنا كاملة من دون تشويه أو إضافة من مدرسة الأسرار في الفلسفة الأفلاطونية القديمة.

"الآلهة والكون" هي مجرّد باب وليست أطروحة روحية-فكرية متكاملة؛ هي مقدّمة لفهم الأساسات الروحية للوثنية والحكمة القديمة، لكنّها تحمل بين كلماتها القليلة الكثير من المفاهيم المتقدّمة التي يحتاج الباحث الروحي إلى سنوات من الممارسة والتأمل لاستيعابها وتفكيكها.

هذا الكتاب هو رفيق جيد لمن يخوض رحلة بحث روحي حيث أنه قد يجيب عن بعض التساؤلات حول الكون والوجود، وهو أيضاً مصدر جيّد للمعلومات الأصليّة لمن يهتم بالفلسفات والأديان القديمة ولو لم يكن باحثاً روحياً.

حين تم نشر هذه المخطوطة، افترض الكاتب أن القارىء سيكون غالباً تلميذاً أو باحثاً في إحدى مدارس الأسرار القديمة، ولذلك هو لا يحاول شرح فلسفة الأسرار أو إثبات صحّتها، أو حتى إثبات وجود الآلهة أو إقناع أحد بالإيمان بها. هو يفترض أيضاً أن القارىء يعلم مسبقاً بالمفاهيم الأساسية لهذه الفلسفة.

في هذه المخطوطة، يحاول الكاتب أن يشرح بعض التساؤلات التي يمكن أن تتبادر إلى ذهن المريد بشكل يتكامل مع سعيه الروحي العمليّ بمساعدة معلّميه في مدرسة الأسرار. بما أنّ القارىء المعاصر لن يصادف هذا الكتاب خلال تدريب روحي من هذا النوع، قمنا بإضافة مقدّمة طويلة عن حقائق الأسرار وألحقنا النصّ الأساسي بالشروحات على هوامش كل فصل، لكي نساعد القارىء على الإحاطة بالمقصود بشكل أكبر، ولكي يمكن لهذه المخطوطة أن تحقّق الغاية المرجوّة منها.

كاتب المخطوطة، ساتورنينيوس سيكوندوس سالوستيوس (سالوست) هو مفكّر وثني ومسؤول روماني عاش في القرن الميلادي الرابع، وهو من تلامذة المدرسة الأفلاطونية المحدّثة التي يشكّل الفيلسوف السوري يمبليخوس المعلّم الرئيسي والأكثر شهرة فيها.

المدرسة النيو-أفلاطونية هي ممّا يسمّى "مدارس الأسرار" القديمة، وهي مدارس فلسفية ومجموعات صوفية روحية غامضة، زعمت معرفتها بألغاز الوجود وأبقت تعاليمها وممارساتها سرّاً عمّن ليسوا أعضاءً فيها.

المشترك بين هذه المدارس أنها لم تنقل تعاليمها الرئيسية إلا شفهياً، ما يعني أن ما وصلنا منها ليس سوى شذرات قليلة. من هنا تأتي أهمية هذه المخطوطة التي تتحدّث عن بعض الطروحات الثيولوجية المهمّة في مدارس الأسرار بشكل مباشر.

رغم ذلك، لا يجب على القارىء أن يفترض أن هذا الكتاب يشرح تلك العقيدة بالكامل، فكما هي الحالة مع كل أثر مكتوب في مدارس الأسرار، لا يشكّل النصّ سوى إشارة ظاهرة لفكّ رموز الباطن.

طبعاً إن حاولت البحث عن الفلسفة الوثنية أو الأفلاطونية المحدّثة باللغة العربية ستواجه سيلاً من المحتوى الذي يشوبه سوء الفهم وسوء النيّة.

في الواقع، سوء الفهم لهذه الفلسفة ينتشر بشكل كبير أيضاً في الأوساط الغربية وحتى في الأوساط الروحية البديلة، وهو غالباً ما ينبع من الرغبة الأكاديمية بجعل الأفلاطونية فلسفة "عقلانية" بحت، أو نابع من الرغبة بتصويرها على أنها فلسفة "توحيدية" تؤمن بالله وتقف في نفس الخندق مع الأديان السماوية الثلاث.

النوع الأوّل من سوء الفهم أدّى إلى اختراع التمييز الأكاديمي السخيف بين "الأفلاطونية" و"الأفلاطونية المحدّثة" رغم أنهما المدرسة نفسها. الفارق الوحيد بينهما هو أن بعض الأكاديميين لم يعجبهم قيام المدرسة الأفلاطونية – وهي المدرسة الوثنية قلباً وقالباً - بالكشف عن جانبها الروحي بشكل متزايد، ابتداءً من المعلّم أفلوطين، في صراعها الفكري بوجه المسيحيين الذين بدأوا منذ منتصف القرن الثالث بتضييق الخناق على الوثنية والفلسفة.

النوع الثاني من سوء الفهم هو الزعم أن هذه الفلسفة تؤمن بالله التوحيدي بنسخته الإبراهيمية: المسيحية والإسلامية واليهودية. سوء الفهم هذا قد يعود إلى إيمان الأفلاطونية بما تسمّيه الجوهر والسبب الأول الذي يتواجد في كلّ شيء في الكون، لكن هذا الجوهر لا يشكّل بالنسبة لها إلهاً خالقاً منفصلاً قائماً بحد ذاته.

فكرة الله بحد ذاتها تتعارض بشكل جوهري مع الحكمة القديمة والفلسفة الأفلاطونية لأن الهدف الأساسي للحكمة القديمة هو تحقيق وإدراك وحدة الوجود من خلال الذات. هذه الغاية لا يمكن تحقيقها إن كان الإنسان يعتقد أن المحرّك الأكبر للوجود منفصل عنه وأن الذات الإلهية هي بطبيعتها مختلفة عن الذات الإنسانية.

هذه المعضلة متواجدة أيضاً في الغرب حيث أن معظم النصوص القديمة تُرجمت من اليونانية إلى العربية ثم إلى اللاتينية ثم إلى الإنكليزية على يد مترجمي الخلافة الإسلامية في البداية، ثم على يد الكهنة والرهبان المسيحيين في القرون اللاحقة، ثم على يد الأكاديميين الغربيين في العصر الحديث، أي عبر خطّ طويل من المترجمين الذين يمتلكون حساسية واضحة تجاه كل ما هو وثني ولهم مصلحة بـــ"تنقيح" النص لجعله مقبولاً لدى القارىء والحاكم المسلم والمسيحي أو لدى العالم الأكاديمي الغربي "العقلاني".

لعلّ أوضح مثال على هذا النوع من التشويه بالترجمة هو عادة المترجمين العرب والغربيين على سواء بترجمة كلمة "المقدّس" اليونانية بكلمة "الله".

هنالك أيضاً عادة لدى المترجمين باستبدال كلمة "الإله" المفردة - التي يستخدمها الوثنيون للحديث عن أي إله – بكلمة الله، وهنالك ميل لترجمة تعبير "الجوهر" و"السبب الأول" و"العقل" إلى الله أيضاً، رغم أنها مفاهيم مختلفة ومنفصلة عن بعضها البعض في الحكمة القديمة ولا علاقة لها بالله بالأساس.

لذلك، غالباً ما نشاهد في النصوص الفلسفية القديمة خلطة عجيبة من المفاهيم بشكل يجعلها تبدو كأنها غير متّسقة، حيث نرى الفيلسوف يتحدّث عن الله طوراً ثم يتحدثّ عن الآلهة بعد بضعة سطور.

الحقيقة هي أن الأفلاطونية المحدّثة والوثنية القديمة لم يكن لديها كلمة لـــــ "الله" في قاموسها، حيث كانت تستخدم تعبير "المقدّس" أو "الآلهة" و"الإله" للحديث عن الآلهة. حتى المترجم الإنكليزي لنصّ سالوست، جيلبرت موراي، يشير إلى ذلك قائلاً:

" هم (الوثنيون) لا يبدو أنهم يميّزون بشكل خاص بين hoi theoi (الآلهة) وho theos (الإله) أو theion (المقدّس). هم لا يعتقدون أن التمييزات البشرية بين "هو" و"هذا"، بين "الكثرة" و"الواحد" تنطبق على المقدّس".

رغم ذلك، قام موراي نفسه باستبدال كلمة "المقدّس" و"الإله" في نصّ سالوست بكلمة "الله" في ترجمته في عدّة أماكن، وهو ما تجنّبناه في هذه الترجمة.

اعتمدنا في هذه الترجمة على النسخة المراجعة لترجمة موراي والتي تحقّق منها ناطقون باللغة اللاتينية واليونانية، والتي تم نشرها على مدوّنة إنكليزية على هذا الرابط.

ترجمة هذا الكتاب لم تكن مهمّة سهلة لكنها كانت ضرورية، ولقد أرفقناها ببعض الشروحات من دون أن نحوّل الكتاب إلى أطروحة. لذلك، باستثناء مقدّمتنا أدناه عن "حقائق الأسرار" التي نشرح فيها بعض المفاهيم الأساسية للأفلاطونية، تركنا تعليقاتنا وشروحاتنا في هوامش كلّ فصل، لإيضاح منطق اختيار الكلمات وشرح بعض التعابير التي قد تكون غامضة لدى القارىء.

القيام بهذه الترجمة لم يكن أمراً مخططاً له وهو من المهمّات التي بدت في بعض اللحظات أكبر من إرادتنا الفردية، لكنني أعلم أن السلسلة الطويلة من معلّمي الأسرار وبينهم يمبليخوس، يهزّون رأسهم الآن في مكانهم، ويبتسمون ابتسامتهم المعهودة لتلامذتهم حين يجتهدون لفهم أسرار الوجود.

حقائق الأسرار

قبل أن نبدأ بنصّ سالوست، لا بدّ من أن نشرح بعض الركائز الأساسية لمدرسة الأسرار الأفلاطونية، حيث أن سالوست نفسه يفترض أن المريد يعرف هذه الأمور.
من المهم أن نشير هنا إلى أن الشروحات أدناه لا تهدف لأن تكون شاملة، أي أننا نتوقّع للقارىء أن يكون لديه أسئلة أكثر مما لديه أجوبة عند الانتهاء من القراءة. هذا أمر طبيعي في مدارس الأسرار: الأسرار لا يمكن أن تُعطى، بل يجب أن تُختبر.
السعي الروحي الحقيقي لا يمكن إتمامه بالكتابة والتفكّر، ولا يمكن لنا الحديث عنه بالكامل من دون أن يكون المريد قد خاض بنفسه الاختبارات والتجارب المطلوبة لاكتساب الإدراك الروحي.
إلى ذلك، الشروحات التالية قد تكون غامضة أو عصيّة على الفهم بالنسبة للبعض وذلك بسبب طبيعة الموضوع الذي نناقشه، كما أنها تفترض أن المريد يجب أن يقوم ببعض الجهد الذهني والروحي لفهم المقصود وإدراك المعنى، وبعض المعاني قد لا تتضّح من القراءة الأولى.

هنالك ثلاث افتراضات أساسية في مدرسة الأسرار لا بدّ لكلّ تلميذ روحي أن يعرفها، وهي:
حقيقة الكون، طبيعة الآلهة، والغاية من الوجود.

حقيقة الكون

الجوهر السرمدي الكامن، الذي لا وجود له بنفسه ولا وجود بدونه، ولايغيب عن الوجود ولا هو موجود، وهو طبيعة الوجود ولا طبيعة له، هو الحقيقة الأولى للكون.

من المهم هنا التمييز بين الجوهر والمفهوم التقليدي لله إذ أنهما مفهومان مختلفان: من التجديف في مدارس الأسرار اعتبار الجوهر إلهاً، فهو أكثر من ذلك بكثير.
الجوهر ليس مرادفاً للكون – فالكون متغير أما الجوهر فهو سرمدي وغير خاضع للتغيير أو التبدّل. الكون – كل كون – هو احتمال كامن في الجوهر والجوهر هو الفاعلية الساكنة في الكون.
الجوهر هو طبيعة الأشياء نفسها، وليس قوّة تخلقها أو شيئاً يطلب عبادة من بقيّة الكون. لا يمكن للجوهر أن ينفصل عن الكون او أن يكون موجوداً من دون كون – كما أن الكون لا يمكن أن يكون موجوداً من دون الجوهر: طبيعة الوجود هي الجوهر وطبيعة الجوهر هو الوجود.
مثلما أن النور لا يمكن أن يكون موجوداً من دون شمس والشمس لا يمكن أن تكون موجودة من دون نور، ومثلما أنه لا يمكن الفصل بين الشعاع ومصدره، هكذا هو الجوهر والكون المنبثق عنه.

في مدرسة الأسرار، الجوهر هو أقرب لمفهوم الوتر في فيزياء الكوانتوم، الذي يشكّل أساس الوجود؛ والأوتار هي كيانات أحادية البُعد، تصنع من تفاعلاتها الجسيمات الأوّلية (الكوارك)، التي تصنع بدورها البروتونات والنوترنات التي تشكّل نواة الذرّة، التي تتألف منها كل المادة في الكون. الجوهر هو ما يسبق الصفحة البيضاء للكون.

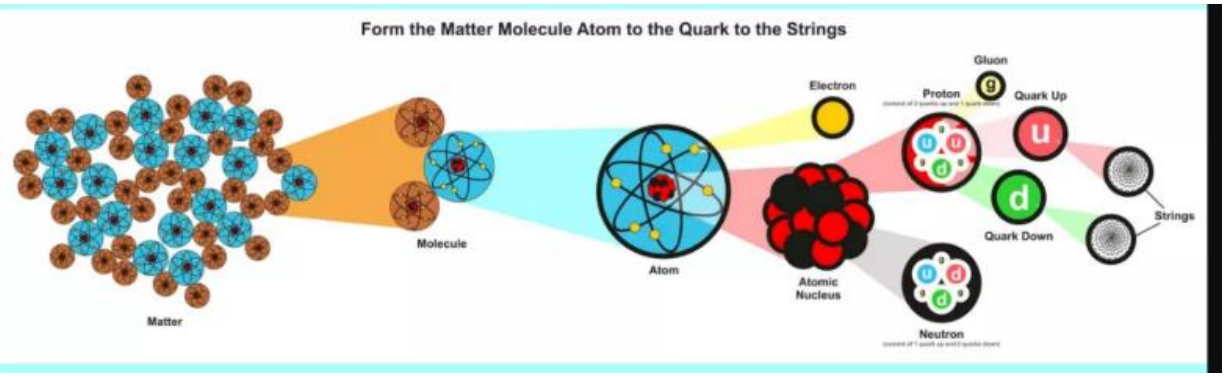

الانبثاق الأول من الجوهر هو الكينونة.

الكينونة هي أن يكون الشيء كائناً حياً في الكون وحاضراً في الوجود ومشاركاً به، بكل ما يحمل هذا التعبير من معاني، وهي بالتالي تحمل معنى أكبر من مجرّد الوجود بمعناه الفيزيائي-المادي البحت، لكنها تحويه ضمنها.

الكينونة تعني أيضاً أن ما هو موجود هو كيان قائم بنفسه وحقيقته كامنة فيه، وليس مجرّد وجود ضامر مبعثر في الكون ولا حركة له – وهذا الجانب مهم لأن طبيعة الكينونة هذه هي ما يجعل من بقية الأمور ممكنة.

في بعض التقاليد الروحية الباطنية، الكينونة هي الكلمة – لأن الكلمة هي "كُن"، و"كُن" هي الإرادة، والإرادة هي طبيعة الكينونة.

الكينونة هي الصفحة البيضاء للكون التي تجعل من الساكن الكامن ممكناً. الكينونة هي الحركة الأولى والسكون المقاوم لها، وهي الفضاء المحدِدْ للوجود، الناتج عن تراقص الحركة والضدّ.

الوعي هو الانبثاق الأول من الكينونة والثاني من الجوهر، وفي اليونانية هو اللوغوس أو العقل الكلّي بحسب الترجمة العربية التقليدية.

لا يوجد ترجمة دقيقة لكلمة لوغوس في اللغتان العربية والإنكليزية: مترجمو اللغة الإنكليزية يستخدمون تعبير Mind أو Intellect، فيما رست العديد من التقاليد الروحية المتأثرة بالأفلاطونية في الشرق كالإسماعيلية والدروز على استخدام تعبير "العقل".

كلمات الذهن والعقل هي برأينا غير كافية للتعبير الكامل عن المعنى المقصود باللوغوس، بل تسبّب في بعض الأحيان تشوشاً لدى التلامذة والمريدين الذين قد يعتقدون أن المقصود بها هو العمليات الذهنية والعقليّة والمنطق والتفكير فحسب، وأن المقصود بالعقل الكلّي هو نوع من الدماغ الكوني فقط.

التفكير والفطنة والعقلانية هي من خصائص اللوغوس (أو الوعي) لكنّها ليست اللوغوس، مثلما أن الفكّرة في ذهننا ليست ذهننا.

اللوغوس هو انفتاح عين الكينونة على ذاتها، هو انفتاح عين الوعي، أي اكتساب الكينونة القدرة على إدراك الذات والوجود والاستدلال على حقيقته بعين المُراقب، واكتسابها القدرة على أن تمارس وجودها كمخلوق "واعي عاقل" – أي كيان قادر على الاختيار، قادر على ممارسة فعل الإرادة بنفسه.

بعبارة أخرى، المقصود هو الوعي بالذات، ولذلك نرى أن "الوعي" هو الكلمة الأصح للتعبير عن هذا المفهوم.

الوعي هو الرؤية والإدراك والقدرة على الفعل في الوجود، هو إدراك الإرادة لحركتها وذاتها، وهكذا الوعي هو الريشة التي يمكن الرسم بها على اللوحة البيضاء.

الروح هي المرحلة الثالثة من الانبثاق الكوني حيث أن طبيعة الكينونة ووعيها بذاتها يقودانها إلى تشـــكيل **وسيلة للتعبير عن هذا الوعي في الكون ولاحتواءه.**
لا يمكن التفكير بالروح والوعي على أنهما منفصلان عن بعضهما البعض، مثلما أنه لا يمكن التفكير بانفصال الدماغ والجسد واضطلاع كلّ منهما بوظيفته منفصلاً.
فلا الوعي يمكن أن يحقق ذاته من دون روح، ولا الروح يمكن أن تعرف ذاتها من دون الوعي. وكلاهما لا يمكنهما أن يكونا من دون كينونة.
ثالوث الكينونة – الوعي – الروح كان يُعرف في بعض مدارس الأسـرار باسـم البيضـة الكونية التي تحمل داخلها كل الوجود.
هذا الثالوث الروحي الذي شكّل العامود الفقري لمدارس الأسرار القديمة ترك أثراً كبيراً على معظم الديانات والمدارس الروحية التي ظهرت فيما بعد وخاصـــة المسـيحية الرومانيّة التي غالباً ما تبنّت المفهوم من دون فهمه.

هنالك تمييز أيضـاً لدى بعض الفلاسـفة الأفلاطونيين بين الروح والنَفس، حيث أن النفس هي مجموع الوعي الآني في الحياة الفيزيائية والإدراك المرتبط بالحواس الخمسـة، أما الروح فهي مقعد الوعي المراقب للجسـد والحواس، والذي يتجاوز هذه الحواس بإدراكه وتطلّعاته.
في العديد من الأحيان اسـتخدم المعلّمون الأفلاطونيون تعبير الروح الواعية (العقلانية) والروح العاطفية (أو اللاعقلانية) للتمييز بين الروح المحكومة بالوعي والطبيعة الإلهية، والنفس المحكومة بالعاطفة والطبيعة الحيوانية.
"النَفس" ليس خالدة في عرفان مدارس الأسـرار وهي بمثابة الروح المؤقتة المناسـبة لكل دورة حياة، وهي مقيّدة بالجسد، فيما الروح هي كيان خالد يتجسّد من حياة لأخرى من دون قيد جسدي.

بعض المدارس الروحية العربية مثل الصـوفية تسـتخدم كلمة نَفس وروح كمترادفات أحياناً، ولكن لتجنّب تشويش القارىء، سنستخدم كلمة روح هنا وفي الترجمة عند الحديث عن المكوّن الروحي الخالد في الإنسان والتي اعتبرها الأفلاطونيون واعية وامتداداً للوغوس، وكلمة "نَفس" عند الحديث عن المكوّن المؤقت فيه والذي اعتبره الأفلاطونيون المكوّن غير الواعي وامتداد للجسد المادي.
بانبثاق الروح، أصبح لدينا الألوان التي تتيح لنا أن نرسم أشكالاً واضحة على الصفحة البيضاء للكون؛ لدينا اللوحة البيضاء والريشة والألوان، وبالتالي اكتمل ما نحتاجه للبدء بتشكيل الكون.

طبيعة الآلهة

طبيعة الآلهة هي من أكثر المواضيع الثيولوجية الشائكة، حيث يمكن صرف المسألة بأكملها بوصفها خرافات القدماء وعبادة الأصنام، لكن الحقيقة بالنسبة لمدارس الأسرار ليست بهذه البساطة.
مثلما أنه هنالك قدرة على الحبّ، هنالك مصـدر للحب وهنالك طاقة للحبّ وقوّة للحبّ في الوجود. مثلما أنه هنالك قدرة على الخلق والتدمير والجمال، هنالك مصـادر للخلق والتدمير والجمال وهنالك طاقة للخلق والتدمير والجمال وقوى للخلق والتدمير والجمال في الوجود. ومثلما **أنه هنالك وجود، هنالك قوى كونية متعدّدة وقوانين تحكم هذا الوجود.**

في بعض مدارس الأسرار، تسمّى الآلهة بالقوانين الكونية – كونها القوى التي تشكّل ضوابط الوجود وتُعتبر بمثابة مرادف للقانون – أو الظاهرة الكونية نفسها، وفي بعضها تسمّى الآلهة بالمشرّعة للقوانين – مثلاً الآلهة السومرية الأساسية السبعة كان اسمهم المشرّعون السبعة (وليس المقصود هنا بالتشريع القوانين البشرية، بل القوانين التي تحكم الوجود).
في بعض المدارس تسمّى الآلهة بالأفلاك الكونية وتمارس تأثيراتها على الأرض عبر الكواكب التي تناسب كلّ منها قوّة كونية معيّنة، لكن الآلهة ليست الكواكب بحدّ ذاتها مثلما أن الفكرة التي تخرج من ذهن الإنسان ليست الإنسان نفسه ولو كانت جزءاً منه.

في كافة مدارس الأسرار حول العالم، **الآلهة هي القوى الكونية التي تضطلع بثلاث وظائف رئيسية: الخلق، الاستمرارية، والتدمير** – وهي تحكم العناصر الرئيسية التي يتكوّن منها الوجود: النار والهواء والمياه والتراب (أو المادة الصلبة).

بطبيعة الحال، مريد الأسرار سيعلم فوراً على خلفية قانون التناظر (كما في السماء كذلك على الأرض)، أن المقصود بالنار والهواء والمياه والتراب ليست العناصر الموجودة على الأرض فحسب بل ما يوازيها من قوى في الكون تحكم الحرارة والبرودة والمادة والطاقة والتوسّع والتقلّص والقوّة الالكترو-مغناطيسية والتفاعلات الضعيفة والتفاعلات القوية والجذب (أو الجاذبية)، وكلّها ظواهر لها تناظراتها على الأرض وفي الجسد البشري نفسه.

لا يوجد تشديد في مدارس الأسرار على موضوع "الإيمان" بالآلهة، ونادراً ما نرى هذا التعبير (الإيمان) في شروحات وكتابات هذه المدارس. الحديث الغالب هو عن "معرفة" الآلهة والارتقاء إليها، لا عن الإيمان بها. الإيمان بالآلهة من عدمه أمراً لا يقدّم أو يؤخّر كثيراً حيث أنه لا يغيّر من حقيقة وجود قوى كونية تحكم سير الوجود، مثلما أن إيماننا بالجاذبية من عدمه لا يغيّر من واقع وجود هذه الجاذبية وتأثيراتها علينا.

الآلهة إذاً ليست رجلاً ملتحياً يحمل رمحاً وترساً ويتجوّل بعربته في السماء – ولو أنها ظهرت لنا في بعض الأحيان على هذا الشكل.
من يعتقد أن الأصنام هي الآلهة هو كمن يخلط بين الإصبع الذي يدلّ على القمر والقمر نفسه؛ فالتماثيل وكل التصوّرات الفنّية والمكتوبة عن الآلهة هي الإصبع الذي يدلّ عليها وليست الآلهة نفسها. هذا ينطبق على صفاتها وأشكالها البشرية أو غير البشرية المتصوّرة. الآلهة في مدارس الأسرار لا شكل لها وإن كان لها جوهر وخصائص يمكن معرفتها بالاستدلال الروحي والعقلي.

رغم ذلك، الأشكال التي تصوّرها القدماء للآلهة لم تكن عشوائية: القوى التي لها خصائص واضحة لها ارتباطات بصرية وفعليّة معيّنة مع خصائصها ومع تناظراتها على الأرض؛ فكل قوّة لها تناظرات في الأشكال الهندسية والأصوات والروائح والكائنات والنباتات، ومن الطبيعي أن تتخذّ هذه الخصائص شكلاً معيناً مع الوقت بتأثير التجربة المباشرة لآلاف البشر على مدى آلاف السنوات.

لهذا السبب نرى أن الأسد مثلاً هو الحيوان المرتبط بإنانا فيما الثور هو الحيوان المرتبط بزوس وبعل هدد، حيث أن التجربة المباشرة للقدماء على امتداد السنوات أظهرت لهم ارتباطاً وثيقاً بين هذه الحيوانات وتلك القوى.
الأساطير القديمة المتعلّقة بالآلهة تخفي بين طيّاتها مفاتيح التجربة الروحية المتراكمة للبشرية على مدى آلاف السنوات. هذه الأساطير تتشابه بشكل مثير للدهشة بين حضارات وأزمان لم تتواصل مع بعضها البعض. من

هذه الأساطير مثلاً، الأسطورة السومرية عن الصراع بين إله العواصف مردوك والأفعى تيامات المتعدّدة الرؤوس والتي تمثّل المياه الأزلية والإلهة الأولى عمرها أربعة آلاف عام. هذه الأسطورة تتشابه بشكل مثير للدهشة مع عشرات الأساطير المشابهة حول العالم منها الصراع بين إله العاصف النوردي "ثور" وأفعى المياه الأزلية يورمونغاندر التي ظهرت في شمال أوروبا بعد ثلاثة آلاف عام من أسطورة مردوك، ومثلها أيضاً أسطورة الصراع بين إله العواصف الياباني سوسانو وأفعى البحار ياماتو ذات الثمانية رؤوس التي ظهرت في ديانة الشنتو قبل أسطورة مردوك حتى.

هذه الأساطير والتصوّرات والرموز والارتباطات للإلهة ليست عشوائية، وتأتي من التجربة الروحيّة المباشرة ويمكن استخدامها لتعميق فهمنا وتواصلنا مع هذه القوى، مع العلم أنها مفلترة عبر الإدراك البشري المرتبط حكماً بالزمان والثقافة والظروف البيئية المحليّة لكلّ منها.

كما أن القوى الكونيّة متنوّعة، كذلك الآلهة وطبيعة كلّ منها: في مدارس الأسرار هنالك غالباً تمييز بين ثلاثة أنظمة أو مستويات من الآلهة:

- **الآلهة المتجاوزة للكون**: وهي القوى التي تؤلف ثالوث الكينونة، الوعي، والروح. هذه الآلهة المتجاوزة للمكان والزمان هي على المستوى "السببي" للوجود – أي هي تلك التي ينبثق منها الكون والتي تبقى بعد زوال هذا الكون وانبثاق الكون التالي من بعده.
- **الآلهة الكونية**: وهي الآلهة التي تصنع وتؤلف وتصون الكون الحالي، وهي متماهية لحدّ كبير مع الكون نفسه – وهي بوصفها القوانين الحاكمة للكون، تخضع بدورها لهذه القوانين. يمكن لهذه الآلهة أن تشكّل الكون لكنها لا تخلق الكون من العدم ولا تستطيع إفناءه، وهي بنفسها انبثاق كوني رابع بعد الروح، من الآلهة المتجاوزة للوجود.
  هذه الآلهة هي التي تضطلع بالوظائف الكونية الأساسية، والنموذج الأفلاطوني لهذه الوظائف هو رباعي، وهو: التشكيل، التحريك، التناغم، الصون.
  التشكيل هو عملية الخلق والصنع لما يُعرف بالنماذج الرئيسية archetypes للكون ومخلوقاته، التحريك هو إضفاء الحياة والحيوية وميكانيزم التكاثر والتناسل للكون ومخلوقاته، أما التناغم فهو تحقيق التوازن والتناسق بين مختلف المكونات، والصون هو عملية الاستمرارية والحماية والتدمير والإفناء.
- **آلهة العالم**: يطلق يمليخوس على هذه الآلهة اسم "الآلهة المحسوسة" أو "المادية"، وهي تجلّيات للآلهة الكونية على الأرض، يمكن أن تأخذ أشكالاً روحية ونفسية وذهنية عدّة، وهي المعروفة لدى العامّة والمتوجّه لها غالباً بالعبادة في الأديان الوثنية القديمة. معظم الأحيان، كان يُطلق اسم daemon على هذه الآلهة، أي قوى إلهية أو روحية، ويمكن لآلهة العالم أن تكون قوى محلّية – كتلك التي تؤثر على بقعة جغرافية معيّنة، كما يمكن أن تكون تجلّي فرعي للآلهة الكونية للقيام بوظيفة أكثر تخصصاً على المستوى البشري.

  على سبيل المثال، إله الشفاء أسكليبيوس هو تجلّي فرعي لإله الشمس أبولو – أحد الآلهة الرئيسية للتوازن الكوني. يمكن أن يكون هناك تجلّيات أخرى لأبولو على شكل آلهة محلّية أخرى بوظيفة أخرى غير الشفاء في مكان آخر من العالم.

في الواقع، يمكن للنوع الثالث من الآلهة (آلهة العالم) أن "يُصنع" على يد البشر بتركيز الوعي الجماعي لفترة طويلة من الزمن على مفهوم أو وظيفة واحدة وتجسيدها باسم معروف، ما يخلق قوة "دايمون" روحي – أو مجمعاً للقدرة يمكن الوصول إليه ويصبح مؤثراً بطريقته المحدودة على الأرض.

لذلك لا تخصّص مدارس الأسرار الكثير من الجهد للحديث عن الآلهة الصغرى، لأنها بالنسبة لها هي "الظاهر" الذي يراه بقية الناس ويعتقدونه أنه يمثّل الحقيقة، فيما "الباطن" هو القوى الكونية الرئيسية التي هي مصدر التجلّي.
قد تبدو هذه التصنيفات والأنظمة الثيولوجية بمثابة نقاش لا طائل منه لكن الحقيقة هي أن هذه التصنيفات ليس نموذجاً فكرياً للنقاش بل هي الخريطة العملية لتحقيق الوعي الروحي للمريد وهذا ما سنتحدّث عنه في الفقرة الأخيرة.

الغاية من الوجود

في مدرسة الأسرار، فهم طبيعة الوجود على المستوى الذهني هو الخطوة الأولى فقط للدخول في عباب رحلة روحية طويلة تهدف للارتقاء والتوحّد: الارتقاء للآلهة والتوحد مع جوهر الوجود.

بطبيعتها، هذه الرحلة تتمحور حول تجاوز الذات الإنسانية لتحقيق الذات الكونية.
الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه كتب بعد أكثر من ألفي عام من غياب المدرسة الأفلاطونية: "الإنسان هو شيء يجب أن يتم تجاوزه. الإنسان هو حبل مربوط بين الحيوان والإنسان الأعلى – حبل فوق هاوية. ما هو عظيم في الإنسان أنه جسر وليس نهاية"[1].

مدارس الأسرار هي التعبير الروحي الجوهري عن فلسفة تجاوز الإنسان، لأن هذه الرحلة الروحية تتطلب تجاوزاً لأساسيات البرمجة البشرية الأوتوماتيكية والانطلاق نحو الكينونة في الوجود من خلال الإرادة الواعية.

لأسباب مختلفة، لا يمكن شرح الجانب العملي من درب الارتقاء في مدارس الأسرار لكن يمكننا أن نتحدّث عن بعض الأطر العامة لها.
اسم هذه العمليّة في المدرسة الأفلاطونية هو Theurgy وترجمتها في العربية "السيمياء": أي الطقوس والممارسات التي تُتبع للاتحاد مع الآلهة وتحقيق الكمال الذاتي.

المعلّم الحكيم شهاب الدين سهروردي (1154–1191)، وهو من المعلّمين النادرين في العالم الإسلامي الذين عرفوا حقيقة مدرسة الأسرار، سمّى هذه العملية بكل بساطة بـ"التألّه".
يمكننا هنا أن نبدأ بفهم دواعي سرّية مدارس الأسرار عبر العصور، حيث أن الحديث عن التأله من شأنه أن يجلب سخط السلطات الدينية وحذر السلطات السياسية إضافة إلى جذب كافة أنواع الشخصيات المهووسة بالقوّة والسلطة وحب الذات.

السهروردي نفسه دفع ثمن حديثه عن الحقيقة بحياته، حيث تم إعدامه في حلب في العام 1191 ميلادي، وهو الذي وصف أفلاطون بإمام الحكمة ورئيسها، وكان يقول دائماً أن "*أجود الطلبة هو طالب التأله والبحث ثم طالب التأله ثم طالب البحث*"[2]، في إشارة منه إلى أهمية التجربة والممارسة العمليّة في هذه المدرسة وتفوّقها على التفكير والقراءة البحت.

---

[1] هكذا تكلم زرادشت.
[2] كتاب حكمة الإشراق للسهروردي.

في نفس الموضع يقول شيخنا الحكيم: *"لا رئاسة في أرض الله للباحث المتوغّل في البحث الذي لم يتوغّل في التأله، فإن المتوغل في التأله لا يخلو عنه العالم".*

بعبارة أخرى: أعلى درجات البحث والفهم الذهني لا تتفوّق على أدنى درجات التأله والممارسة الروحية الفعلية. نعود إلى هذه النقطة للتشديد مرة أخرى على أن الطروحات الروحية عن حقيقة الكون وطبيعة الآلهة التي عرضناها سابقاً ليست نماذج للترفيه الفكري بل خرائط للممارسات العمليّة.

المريد الروحي الذي يأتي لمدرسة الأسرار يتم تقييمه أولاً على يد المعلّمين، ومن خلال هذه التقييمات يتم فهم شخصيته وقدرته ومستواه في الإدراك الروحي إضافة إلى تحديد خارطته النجمية، وتبعاً لذلك يُعطى برنامجاً من الطقوس والممارسات يناسب مستواه الروحي وتطلعاته.

في المرحلة الأولى من الرحلة، الغالبية الساحقة من التلامذة سيبدأون بتأملات وطقوس مرتبطة بالأمور المادية وبآلهة العالم – وعدد كبير منهم قد يبقى في هذا البرنامج من السيمياء مدى الحياة.
السيمياء في هذه المرحلة فيها الكثير من الطقوس ذات الطبيعة "المادّية"، منها الغناء والصلوات والبخور والتقديمات والزهور ورحلات الحجّ وزيارات المعابد وغيرها. في هذه المرحلة، يتم التشديد أيضاً على التدريب الجسدي مثل التمارين والقدرة على التحمّل والصوم والامتناع عن الجنس والخمر وغيرها.
المهمّة الرئيسية للمريد الروحي في هذه المرحلة هي صقل الذات وتنقيتها من الشوائب واكتساب القدرة على التحكم بحالته الذهنية والعاطفية والجسدية، بدلاً من أن تكون كل هذه الأمور نتيجة البيئة والظروف المحيطة به.
الكلمة المفتاح لهذه المرحلة هي وضع أساسات الإدراك: إدراك الذات والوجود، أي هي بداية فهم الآلهة والكون والذات عبر التجربة الحياتية المباشرة للمريد.
في هذه المرحلة أيضاً، ينشأ الفهم الأوّل للمريد لطبيعة الشخصية الإنسانية وما يُسمّى بعجلة الوجود – أي المؤثرات الخارجية والداخلية التي تخلق وعي اللحظة والتي بدورها تخلق عمل وكلمة اللحظة.
الأمر الأساس الذي يتعلّمه هنا هو إدراك أهمية وصعوبة اختيار وعي اللحظة عبر الإرادة، وعند هذه النقطة بالذات، يصبح المريد مستعداً للمرحلة التالية من ممارسات الأسرار.

في المرحلة الثانية، ينتقل الطالب للتوغّل في طبيعة الكون والآلهة وفهم طبيعتها وطبيعة الوجود الذي تحكمه.
معرفة الآلهة في مدارس الأسرار هو أمر ممكن من خلال الجسد والذهن والروح عبر تجربة حسّية وصوفية مباشرة.
كل قوّة لها معالمها المحدّدة ووعيها الخاص بها الذي يمكن التواصل معه من خلال أدواتها ورموزها ونطاقات قوّتها في هذا العالم، وهذا ما يفعله المريد، بدءاً بالآلهة أو القوى الأكثر ارتباطاً به: الآلهة التي تحكم خارطته النجمية، ثم الآلهة التي تحكم جوهر الشخصية الحالية، ثم الآلهة التي رأى فيها المعلّمون في المدرسة ضرورة وجودها في حياة المريد.

في هذه المرحلة، الطقوس والممارسات تأخذ طابعاً أكثر تجريدية، بحيث تصبح ممارسة التأمل أساسية، ويُعطى التلميذ الأشكال والأصوات والحقائق السرية للآلهة لكي يتبعها في ممارسته.
من الطبيعي للمريد أن يستمرّ هنا في بعض الممارسات السابقة التي تعلّمها في المرحلة الأولى، لكنه يتعلّم المعنى الباطني لها في هذه المرحلة والجانب الروحي منها، خاصة أن وعيه أصبح أكثر إرهافاً وأكثر قدرة على إدراك المعاني والطاقات الخفية التي ترتبط بها.

في هذه المرحلة أيضاً، بحسب المدرسة، يتم استخدام ممارسات معيّنة لتحقيق اختراقات في الوعي – فيتم مثلاً استخدام حالة النشوة القصوى في الموسيقى والجنس وغيرها لتحقيق هذا الاختراق.
في المرحلة الأولى من التدريب، تعلّم المريد كبح جماح الرغبة من خلال الزهد، لكن في هذه المرحلة، عليه أن يكتسب القدرة على توجيه الرغبة وممارستها عبر الإرادة ثم الامتناع عنها فوراً بالإرادة، وهنا الامتحان الأصعب.

هنالك اختلاف في طبيعة هذه المرحلة بين بعض مدارس الأسرار في ما أصبح يُعرف الآن بالمسارين الأيمن والأيسر: مدارس المسار الأيمن تستمرّ في التركيز على الزهد في هذه المرحلة وتعتبر أن تحقيق اختراقات الوعي يجب أن يتم في العالم الرمزي (أو في مزيج معتدل من العالم الفيزيائي والعالم الرمزي كما في الرقص الصوفي).
أما مدارس المسار الأيسر فتستخدم الممارسات الفعلية في طقوس معيّنة بهدف تحقيق النشوة الروحية، لإنجاز هذه الاختراقات في الوعي. تاريخياً، كان المسار الأيسر – وهو المستمدّ من الممارسات الشامانية في عصور ما قبل التاريخ – هو المسار المهيمن في مدارس الأسرار، لكن بعد ظهور اليهودية ثم المسيحية والإسلام والبوذية والهندوسية المنظّمة وتحوّل العلاقة مع الجسد والعالم الفيزيائي إلى علاقة ذات إشكالية أخلاقيّة، أضطرت بعض مدارس الأسرار للتكيّف مع الظروف المستجدّة وأصبحت مدارس المسار الأيمن هي الغالبة.
من الفروقات المهمّة في هذه المرحلة بين المسارين الأيمن والأيسر، هو أن المسار الأيمن يستمرّ في هذه المرحلة بالتوافق مع الثقافة السائدة بشكل عام، فيما يطلب المسار الأيسر من مريديه رفض الثقافة السائدة بشكل مباشر لتحقيق صدمة أكبر في الوعي.
مثلاً، في مدارس التانترا الهندية، سيُطلب من التلميذ في المسار الأيسر أن يأكل السمك واللحوم والحنطة والنبيذ وأن يمارس الجنس، وهي كلّها مأكولات ومشروبات وممارسات محرّمة في المدارس الهندوسية التقليدية القائمة على اتبّاع حمية خضرية بالكامل والامتناع عن شرب الكحول وممارسة الجنس. المنطق خلف هذه الممارسة ليس بالممارسات بحدّ ذاتها، بل بفكرة أن اكتساب الوعي غير العادي لا يمكن أن يتم إن حافظ المريد على وعيه العادي بحياة لا تتحدّى السائد.

في هذه المرحلة، يكتمل لدى المريد تفكيك البرمجة الاجتماعية والثقافية المسبقة ويُعمل على التخلّص من التراكمات النفسية والذهنية بهدف الاندماج لأكبر درجة ممكنة مع التدفق الكوني. لهذا السبب ربّما، يظهر معظم المعلّمين الروحيين وأصحاب التجربة الروحية كأنهم مجانين خارجين عن المجتمع وأعرافه، فهم غالباً تخلّصوا كلّيا من المنطق الاجتماعي السائد في عصرهم ومكانهم.

في هذه المرحلة، يركّز المريد على معرفة المشرّعين السبعة الكبار، أو القوى والآلهة الرئيسية التي تحكم الوجود والظواهر والقوانين المرتبطة بها، وكل قوّة لها تقنياتها الخاصة في التأمل والطقوس والممارسات.
على سبيل المثال، الطقوس الجنسية كانت ممارسات أساسية لفهم قوّة عشتار – الإلهة الخالقة للكون، أو القوّة الأنثوية الكامنة في طبيعة استمرارية الوجود.

إن كان تركيز المرحلة الأولى هو الفهم والانضباط، وتركيز المرحلة الثانية هو المعرفة والارتقاء، فتركيز المرحلة الثالثة هو الإرادة والتجاوز.
في المرحلة الأولى، يكون المريد حاضراً بشكل أساسي في الكون الفيزيائي، وفي المرحلة الثانية يصبح متنقلاً بين العوالم الفيزيائية والروحية، أما في المرحلة الثالثة فهو وجود الوعي في تجاوز كامل للكون، أي أن يكون وعيه ارتقى لدرجة أنه أصبح متواجداً على المستوى السببي للوجود بدلاً من أن يكون موجوداً على مستوى النتائج.

في هذه المرحلة، على المريد، بعد أن ارتقى إلى التوحّد مع المشرّعين السبعة، أن يتجاوزهم ويتجاوز قدرتهم على التأثير حتى عليه، وأن يصبح واحداً مع قلب الكون نفسه، أن يتحد مرّة أخرى مع الإرادة والوعي وطاقة الوجود.

لا نجرؤ على الادّعاء أننا نعرف الكثير عن هذه المرحلة، فمدارس الأسرار بالكاد تركت أي شذرات عنها وما تركته هو إشارات رمزية تحتاج إلى سنوات من التجربة والبحث الروحي، لكن ما نعرفه هو أن معلّمي مدارس الأسرار أنفسهم لم يدّعوا الوصول إليها، وهي مرحلة موازية فعلياً لمفهوم البوديساتفا – أو المتنوّر الكامل في الديانة البوذية.

في تقاليد مدارس الأسرار، هنالك عدد محدود جداً من الأفراد عبر التاريخ الذين استطاعوا الوصول إلى هذه الحالة، وفي بعض المدارس يُقال أنه لا يمكن أن يكون هنالك أكثر من سبعة أشخاص في العالم في نفس الوقت في مرحلة البوديساتفا، لكن ذلك يفتح الباب لنقاش من نوع آخر لا مكان له هنا.
المهم في هذه المرحلة هي أنها سعي للتجاوز، تجاوز القوى الحاكمة للكون نفسها بعد الارتقاء إليها، والأهم هو أنها سعي للتوحّد، التوحّد مع جوهر الوجود.
حتّى هذا التجاوز نفسه، ليس نهاية الطريق، لأن ما يأتي بعده هو ما وصفه سالوستيوس بـ"الانضمام للآلهة في تسيير الكون"، وهو ما اعتبرته مدارس الأسرار غاية الوجود التي يبدأ كل شخص بممارستها أصلاً منذ لحظة ولادته.

حالة التوحّد مع الجوهر، المعروفة جيداً لدى الصوفيين، هو أمر ممكن للمريد في كافة المراحل، لكن الفارق بين هذه اللمحات التوحّدية في بداية الدرب الروحية وبين نفس اللمحات في مرحلة متقدّمة منها، هو كالفارق بين الشعور بنور الشمس ودفئها، وبين أن نكون نحن شمساً صغيرة.
نترككم الآن مع سالوستيوس وشروحاته عن الآلهة والكون.

مخطوطة حول الآلهة والكون

بقلم سالوستيوس

I. عمّا يجب أن يكون عليه المريد، وفيما يتعلّق بالتصورات العامة

أولئك الذين يريدون تعلّم ما يتعلّق بالآلهة يجب أن يكونوا قد حصلوا على إرشاد جيّد منذ الطفولة، ولا يتقبّلون المعتقدات الحمقاء. يجب أن يكون لديهم أيضاً طابع خيّر و عقلاني لكي يتاح لهم فهم التعاليم كما ينبغي.
يجب ان يكونوا أيضاً على دراية بالتصوّرات العامة. هذه التصورات هي المبادىء التي يوافق عليها الجميع ما أن يتم سؤالهم عنها؛ منها مثلاً أن الآلهة خيّرة، حرّة من الغرائز، وحرّة من التغيير. كل ما يعاني من التغيير يصبح بسبب هذه العمليّة أفضل أو أسوأ؛ إن أصبح أسوأ فهو بات بالتالي سيئاً، وإن أصبح أفضل، فهذا يعني أنه لم يكن جيداً بالأساس.

II. الآلهة أزلية، غير متغيّرة، غير مولودة، غير ماديّة وغير محصورة بالفضاء.

فليعلم المريد هذا الأمر. فلتتبع التعاليم ما يلي. جوهر الآلهة لم يأتي إلى الوجود لأن ما هو موجود دائماً لا يأتي إلى الوجود؛ وما هو موجود للأبد ويمتلك القوة الأوّلية لا يعاني بطبيعته من شيء.
الآلهة لا أجساد لها؛ لأنه حتى في الأجساد، القوّة متجرّدة عن المادة. والآلهة غير محصورة بالفضاء، لأن ذلك صفة للأجساد. ولا هي منفصلة عن السبب الأول أو عن بعضها البعض، مثل أن الأفكار ليست منفصلة عن الذهن وفعل المعرفة ليس منفصلاً عن الروح.

III. حول الأساطير[3]؛ إنها مقدّسة وأسباب ذلك.

علينا أن نعالج إذاً لماذا تجاوز القدماء هذه العقائد واستخدموا الأساطير. وهذا أول منافع الأساطير إذ علينا أن نبحث وألا نبقي أذهاننا خاملة.

---

[3] المقصود بالأساطير هنا هي الأساطير الدينية الوثنية عن أفعال الآلهة وحياتها مثل أساطير جلجامش وبعل وأوزيريس وقصص زوس وغيرها وهي موجودة في كافة الأديان الوثنية القديمة.

حقيقة أن الأساطيرة مقدّسة يمكن مشاهدتها عبر أولئك الذين استخدموها. تم استخدام الأساطير لإلهام الشعراء، وعلى يد أفضل الفلاسفة، وعلى يد أولئك الذين أسّسوا الأسرار ومن قِبَل الآلهة نفسها عبر العرّافين[4].

لكن البحث بأسباب قدسيّة الأساطير هو مهمّة الفلسفة. بما أن كل الأشياء الموجودة تفرح بما يشبهها وترفض ما يختلف عنها، القصص عن الآلهة يجب أن تكون مثل الآلهة، أي عليها أن تكون في نفس الوقت جديرة بجوهرها المقدّس وتجعلها أقرب لأولئك الذين يتحدّثون عنها: هذا الحديث يمكن القيام به فقط عبر الأساطير.

الأساطير تمثّل الآلهة وخير الآلهة – لكنها خاضعة دائماً للتمييز بين ما يمكن الحديث عنه وما لا يمكن الحديث عنه، ما يمكن كشفه وما لا يمكن كشفه، ما هو واضح وما هو مخفي: لأنه مثلما جعلت الآلهة خيرات الحواس والمنطق متاحة للجميع فيما حصرت الفطنة بالحكماء، كذلك الأساطير تخبر عن وجود الآلهة للجميع، لكن طبيعة الآلهة وهويتها تنكشف فقط لمن يستطيعون أن يدركوها.

هي (الأساطير) تمثّل أيضاً نشاطات الآلهة. يمكن لأحدهم أن يسمّي العالم أسطورة، حيث أن الأجساد والأشياء فيه ظاهرة، لكن الأرواح والأذهان مخفيّة. إلى جانب ذلك، إن أردت تعليم الحقيقة الكاملة عن الآلهة للجميع، سيولّد ذلك ازدراءً لدى الحمقى لأنهم لن يقدروا على الفهم، فيما سيسبّب انطفاء الحماسة لدي الخيّرين، أمّا إخفاء الحقيقة عبر الأساطير فهو يقي من ازدراء الحمقى ويدفع الخيّرين لممارسة الفلسفة.

لكن، لماذا وضعوا في الأساطير قصص زنا وسرقة وتعدّي على الأب وما شابه من حماقات أخرى؟ أليس ذلك ربّما شيئاً يدعو إلى التأمل، أنه وُضع عن قصد لكي تكون الأمور المنافية للعقل بوضوح حافزاً للروح لكي تشعر فوراً أن الكلمات هي ستار وأن الحقيقة هي لغز؟

IV. عن أنّ أنواع الأساطير هي خمسة، مع أمثلة لكلّ منها

من الأساطير ما هو ثيولوجي[5]، ما هو فيزيائي، ما هو روحي وما هو مادي، وما هو مزيج من النوعين الأخيرين.

الأساطير الثولوجية هي تلك التي لا تستخدم أشكال الأجسام (للتعبير) لكن تتمعّن في جوهر الآلهة نفسه: مثلاً: ابتلاع كرونوس لأبناءه. بما أن المقدّس وعي[6] وبما أن كل ما هو وعي يعود لنفسه، هذه الأسطورة تعبّر مجازياً عن الجوهر المقدّس.

---

[4] التعبير اللاتيني ōrāre يعني أن يتكلم الوسيط الروحي بلسان الآلهة. التنبؤ والوحي والمشورة الروحية كانت كلّها من مهام العرّاف في الوثنية القديمة.

[5] الثيولوجيا – أيضاً علم الإلهيات أو اللاهوت باللغة العربية هو دراسة المقدّس أو ما يتعلّق به وبالحقائق والمعتقدات الروحية.

[6] الكلمة اليونانية هنا هي اللوغوس، وقد أوضحنا منطق ترجمته بالوعي في المقدّمة.

يمكن النظر إلى الأساطير على أنها فيزيائية حين تعبّر عن نشاطات الآلهة في العالم: مثلاً، البشر قبل الوقت الحالي كانوا يعتبرون (الإله) كرونوس الزمن نفسه، ولذلك تصوّروه يقوم بابتلاع أبنائه الذين يحملون أسماء الأزمان المختلفة.

الفهم الروحي (للأساطير) هو ما يتعلق بنشاطات الروح نفسها؛ حيث أن أفعال الوهي عبر الروح تبقى دائماً مرتبطة بمولدها (الروحي) الأصلي، رغم أنها تؤثر على أشياء (مادّية) أخرى.

ما هو مادي (من الأساطير) والنوع الأخير منها والذي استخدمه المصريّون بكثرة، بسبب جهلهم الذي جعلهم يعتقدون أن الأشياء المادية هي نفسها الآلهة وقاموا بتسميتها على هذا الأساس؛ مثلاً قاموا بتسمية الأرض أيزيس، الرطوبة أوزيريس، الحرارة تايفون، أو مجدداً، المياه كرونوس، وثمار الأرض أدونيس، والنبيذ ديونيسوس.

القول أن هذه الأشياء مقدّسة بالنسبة إلى الآلهة، مثل الأعشاب والأحجار والحيوانات المختلفة هو ممكن بالنسبة للرجال العقلانيين، لكن القول أن (هذه الأشياء) هي الآلهة نفسها هو أفكار للمجانين – باستثناء ربما، إن كنّا نقصد مثلاً أن جرم الشمس وأشعتها التي تأتي من الجرم هما كلاهما "الشمس" – كما حين يقول أحدهم أن الشمس تدخل عبر النافذة[7].

النوع المختلط من الأساطير يمكن رؤيته في العديد من الأمثلة: مثلاً حين تقول الأسطورة أنه الآلهة صنعت تفاحة ذهبية خلال وليمة كبرى لكنها بدأت بالتنافس حول من يجب أن يحصل عليها. هذا الخلاف دفع زوس لإرسالهم إلى باريس (إلهة الحُكم) للفصل فيما بينهم. رأت باريس أن أفروديت رائعة الجمال وأعطتها التفاحة.

الوليمة هنا ترمز إلى قدرات الآلهة المتجاوزة للكون[8]؛ ولذلك اجتمعت سوية.

التفاحة الذهبية هي العالم، الذي تشكّل من المتعارضات، ولذلك قيل أنه تم رميه بالخلاف. الآلهة المختلفة تعطي هدايا مختلفة للعالم، ويقال بالتالي أنها "تتنافس" من أجل الحصول على التفاحة. والروح التي تعيش وفقاً لمبدأ الوعي – لأن هذا ما هي عليه باريس – لم تر من قوى أخرى في العالم سوى الجمال، ولذلك تُعلن أن التفاحة تنتمي لأفروديت.

الأساطير الثيولوجية تناسب الفلاسفة، تلك الفيزيائية والروحية تناسب الشعراء، والأساطير المختلطة تناسب طقوس التكريس الدينية[9]، لأن كل تكريس يهدف لتوحيدنا مع الكون والآلهة.

فلنأخذ أسطورة أخرى، يقال أن والدة الآلهة وقعت في الحب عند رؤيتها لآتيس مستلقياً على ضفاف نهر غالوس، وأخذته وتوّجته بغطاءها من النجوم وأبقته معها دائماً. لكن آتيس وقع بحب حورية وترك والدة الآلهة

---

[7] أي حين يقصد القائل أن أشعة الشمس هي التي تدخل عبر النافذة وليس جرم الشمس نفسه.

[8] الأسطورة التي يوردها سالوست هنا ترمز لقيام الآلهة المتجاوزة للكون بصنع الكون (وهو التفاحة الذهبية)، وأن الروح حين رأت الكون، لم تر منه سوى الجمال.

[9] **Initiation** : هو طقس تكريس عضو جديد في مدارس الأسرار الروحية، وغالباً ما يترافق مع نقل للمعرفة الروحية. ويكيبيديا تستخدم ترجمات مختلفة لهذه العملية في اللغة العربية منها طقس الإدخال أو التنسيب أو التلقين، لكن اخترنا طقس التكريس كون ذلك يجمع عدة معاني معاً.

ليعيش معها. غضبت والدة الآلهة بشدّة بسبب ذلك وجعلت آتيس مجنوناً ثم قطعت أعضاءه التناسلية وأبقتهم مع الحورية، ثم جعلته يعود ليعيش معها.

الآن، والدة الآلهة هي المبدأ الذي يولّد الحياة؛ لهذا السبب تُسمّى بالوالدة. آتيس هو ديميورغوس[10] (صانع) كافة الأشياء التي تولد وتموت؛ لذلك قيل أنه وُجد على ضفاف نهر غالوس، لأن غالوس هو رمز المجرّة، أو درب التبانة، حيث يبدأ خضوع الجسد للرغبة.

الآلهة الأوائل (الآلهة المتجاوزة للكون) تصنع الآلهة الثانوية (الآلهة الكونية) بشكل مثالي، فالوالدة تحبّ آتيس وتعطيه قدرات كونية. هذا ما يرمز له غطاء النجوم. آتيس يقع في حبّ حورية: الحورية هي القوى المولّدة للوجود التي تحكم التناسل والاستمرارية، لأن كل ما يتم توليده هو مائع (قابل للتشكيل). لكن بما أن عمليّة التوليد يجب أن تقف عند حدّ معيّن، وألا يُسمح لها أن تلد شيئاً أسوأ من الأسوأ، الديميورغوس الذي يولّد هذه الأشياء يتخلّى عن هذه القوّة التوليدية ويعيدها إلى العالم ويعود من بعدها ليصبح جزءاً من الآلهة مجدداً.

ليس صحيحاً أن هذه الأشياء حدثت مرة واحدة في زمن ما من الماضي، حيث لم يكن الكون موجوداً بعد، لأن الآلهة والكون أزليّون، من دون بداية أو نهاية. التحوّلات الموصوفة هنا هي أيضاً سرمديّة، من دون بداية أو نهاية. الوعي يرى كل الأشياء في نفس الوقت، لكن اللوغوس (العقل الكلّي) يعبّر عن بعض الأشياء قبل أخرى. وهكذا، هذه الأسطورة متوافقة دائماً مع (حقيقة) الكون، ولهذا السبب نحتفل بطقوس مكرّسة لمحاكاة الكون، وإلا كيف يمكننا أن نصل للمستوى الأعلى؟

في بداية (طقوس التكريس) نكون نحن بأنفسنا، الذين هبطنا من السماوات ونعيش مع الحور، في حالة من اليأس، ونمتنع عن أكل الذرة وكافة المأكولات الغنية وغير النظيفة[11]، وكلاهما عدائي للروح. ثم يأتي وقت قطع الشجرة والصوم، كما لو كنا نحن أيضاً ننقطع عن الاشتراك بعملية التوليد. وبعدها نعيش بالتغذية على الحليب، كأننا ولدنا من جديد، ومن بعدها تأتي الأفراح والأكاليل كما لو أنها عودة إلى لأعلى، إلى الآلهة.

الفصل الذي تُقام به هذه الشعائر هو دليل على حقيقة هذه التفسيرات. الطقوس تقام قبيل الاعتدال الربيعي، حين تكون ثمار الأرض غير متاحة للقطاف، واليوم في طور أن يصبح أطول من الليل، الأمر الذي ينسجم جيداً مع الصعود الروحي للأعلى. الاعتدال الآخر يُعتبر في الأساطير زمن اغتصاب كور (ملكة العالم السفلي)، ويتناسب مع هبوط الأرواح.

نأمل أن تجد هذه التفسيرات للأساطير القبول في أعين الآلهة نفسها وأرواح أولئك الذين كتبوا هذه الأساطير.

---

[10] **الديميورغوس** في الأفلاطونية المحدثة هو القوّة الصانعة للواقع المادّي للكون الحالي والمسؤول عن الحفاظ عليه، لكنّه ليس خالقاً للكون بالمعنى التوحيدي للكلمة لأن الديميورغوس انبثق بدوره مما هو سابق عليه ولأن المواد التي يصمّم بها الكون والقوانين التي تحكم هذا الكون انبثقت بدورها عن فيض سابق للديميورغوس نفسه وهو خاضع لها بدوره. الديميورغوس في الأفلاطونية هو غالباً ديمورغوس جماعي مؤلف من عدّة آلهة، وفي هذه الحالة، هنالك غالباً سبعة آلهة أساسية تُعتبر الديميورغوس الجماعي للكون الحالي.

[11] هذا المقطع بأكمله هو وصف لشهر الصوم الوثني في حضارات البحر المتوسّط حيث كان الوثنيون يمتنعون عن اللحوم والثمار والمشتقّات الحيوانية مثل الحليب والجبنة والبيض لأربعون يوماً، ثم يقومون بشرب الحليب والخبز في اليوم الذي يسبق يوم الاحتفال بالاعتدال الربيعي، ولقد اقتبست المسيحية شهر الصوم الخاص بها عن هذه الممارسة.

V. حول السبب الأول

الأمر التالي هو معرفة السبب الأول ومن بعده الأنظمة المتراتبة للآلهة، ومن ثم طبيعة الكون، جوهر الوعي (العقل) والروح، ومن ثم التدبير الإلهي، القضاء والقدر، ومن ثم نرى الفضيلة والرذيلة والأشكال المختلفة للأنظمة الاجتماعية الجيدة والسيئة التي تشكّلت منها، ومن بعدها نتناول المصدر الذي يمكن أن يكون قد أتى منه الشرّ إلى العالم.

كلّ من هذه المواضيع تحتاج لنقاشات عديدة وطويلة؛ لكن لا ضير من تعدادها بشكل مقتضب، لكي يكون المريد غير جاهلاً بها بالكامل.

من الطبيعي للسبّب الأوّل أن يكون واحداً – لأن الوحدة تسبق الكثرة – وأن يتجاوز كل الأشياء في القوّة والخير. كنتيجة لذلك، كل الأشياء يجب أن تكون جزءاً منه. بسبب قوّته لا يمكن لشيء أن يكبحه، وبسبّب خيره لا يمكن لشيء أن يفرّقه.

إن كان السبب الأوّل روحاً، فكل الأشياء ستمتلك روحاً. وإن كان وعياً فكل الأشياء ستمتلك وعياً. وإن كان كينونة، فكل الأشياء ستشارك في الكينونة.

بما أننا نشاهد هذه الخاصيّة (الكينونة) في كل الأشياء، اعتقد البعض أن (السبب الأول هو) كينونة.

الآن، لو كانت كل هذه الأشياء موجودة فحسب من دون أن تكون خيّرة بطبيعتها، لكان ذلك الافتراض صحيحاً. لكن بما أن كل الأشياء الموجودة، موجودة بسبب خيرها وتشارك في الخير، فلا بدّ للسبب الأوّل أن يكون سابقاً على الكينونة وخيّراً في الوقت نفسه.

من الأدلة القوية (على أنّ السبب الأوّل سابق على الكينونة) هو أن الأرواح النبيلة يمكن أن تتخلّى عن كينونتها في سبيل الخير، حين تواجه الموت من أجل موطنها أو أصدقائها أو حباً بالفضيلة. هذه القدرة (على تجاوز الكينونة) والتي لا يمكن التعبير عنها تأتي من طبيعة الآلهة.

VI. حول الآلهة الكونية والمتجاوزة للكون

من الآلهة ما هو من العالم، ومنها ما هو كوني، ومنها ما هو متجاوز للكون، أي ما بعد كوني.

هنالك ثلاث أنظمة متراتبة من الآلهة، يمكن الاطلاع عليها من خلال العديد من الكتابات حول هذا الموضوع[12].

---

[12] النظام الثالث من الآلهة والذي لم يذكره سالوست هنا سوى بالتعداد هي آلهة العالم – أو الآلهة المرتبطة مباشرة بكوكب الأرض وبأماكن أو قوى أو ظواهر محدّدة ومحصورة نسبياً، وهي ما أسماها يمبليخوس "الآلهة المادية" – أي تلك المرتبطة

الآلهة المابعد كونية هي التي يخلق الجوهر، وهي ما يصنع الوعي (العقل)، وهي ما يشكّل الروح.

أمّا الآلهة الكونية، فهي تلك التي تصنع الكون. من الآلهة الكونية، بعضها يجعل الكون موجوداً، وبعضها يحرّكه وينفخ فيه الحياة، وبعضها يجعله متناغماً متوازناً، والنوع الرابع منها يحافظ على استمراريته بعد تحقيق التناغم.

هنالك أربعة مهام كونيّة، كلّ منها له بداية، منتصف، ونهاية، وبالتالي هنالك إثنا عشر إلهاً (كونياً) يحكمون الكون.

أولئك الذين يصنعون العالم هم زوس، بوسيدون، وهفيستوس؛ وأولئك الذين يملؤوه هم ديميتر، هيرا وآرتميس؛ وأولئك الذين يوازنوه هم أبولو، أفروديت، وهرمس؛ وأولئك الذين يسهرون عليه هم هستيا، أثينا، وآريس.

يمكن للشخص أن يشاهد التلميحات السرية لهذه المهام في صورهم. أبولو يضبط قيثارة؛ أثينا تحمل السلاح؛ وأفروديت عارية لأن التناغم يخلق الجمال، والجمال الذي يمكن رؤيته في الأشياء لا يُمكن أن يُحجب (باللباس أو بغيره).

فيما هؤلاء الإثني عشر يمتلكون العالم بالمعنى العام للكلمة، يجب أن نعتبر أن بقية الآلهة محتواة عبرهم. زوس (يحتوي) ديونيسوس، أبولو (يحتوي) أسكليبيوس، وأفروديت (تحتوي) آلهات الحُسن.

يمكننا أيضاً أن نستدلّ على العوالم المختلفة المرتبطة بالآلهة: الأرض تنتمي لهستيا، المياه لبوسيدون، الهواء لهيرا، والنار لهفيستوس. والأفلاك الستة العليا تنتمي للآلهة التي يتم نسبها إليها في العادة[13].

فيما أبولو وآرتميس هما ما يمكن اعتباره الآلهة المرتبطة بالشمس والقمر، يرتبط مجال كرونوس بديميتير، والأثير هو لأثينا، أما السماوات فهي مشتركة للجميع.

ولذلك، أنظمة وقدرات ومجالات الآلهة الإثنا عشر تم شرحها والاحتفال بها في الترانيم.

VII. حول طبيعة العالم وأزليته

الكون نفسه يجب أن يكون بالضرورة غير قابل للتدمير[14] وغير مخلوق.

مباشرة بتنظيم العالم المادي – فيما الآلهة الكونية هي في مكان وسط تقريباً بين المادة واللامادة، أما الآلهة الما-بعد كونية، فهي غير مادية على الإطلاق.

[13] الأفلاك الستة العليا ونسبتها للآلهة هي: القمر المنسوب لآرتميس\هيكات\سيلين، عطارد المنسوب لهرمس، الزهرة المنسوبة لأفروديت، الشمس المنسوبة لأبولو، المريخ المنسوب للآريس، المشتري المنسوب لزوس، والبعض كان يُضيف زُحل وهو منسوب لكرونوس (والد الزمن).

[14] هنالك نوع من التمييز في الحكمة القديمة بين "العالم" و"الكون"؛ حيث أن العالم المؤلف من الحقيقة الفيزيائية الحالية قابل للتدمير حيث هنالك دورات متعاقبة في التاريخ لكلّ من المهمّات الأساسية للقوى الإثني عشر، لكن الكون كوجود عام وكحقيقة كامنة دائماً في طبيعة الآلهة، هو أزلي وموجود دائماً.

غير قابل للتدمير لأنه، فلنفترض تم تدميره: الاحتمال الوحيد بعد ذلك هو صنع واحد أفضل منه أو أسوأ منه أو مثله أو فوضى.

إن كان (الكون الذي تم خلقه من بعد الكون الحالي) أسوأ، فإنّ القوى التي صنعت كوناً أسوأ استناداً على الكون (السابق) الجيّد، هي بالضرورة سيئة. إن كان (الكون الجديد) أفضل، فإنّ القوّة التي فشلت بصناعة الكون الأفضل في البداية، كانت قدرتها غير كاملة. إن كان (الكون الجديد) هو نفسه (مثل الكون القديم)، فلا جدوى من صناعته؛ وإن كانت فوضى... من التجديف حتى اقتراح أمر من هذا النوع.

هذه الأسباب يجب أن تكون كافية لتظهر أن العالم لم يتم خلقه أيضاً[15]: فهو إن لم يكن قابلاً للتدمير، ليس قابلاً للخلق أيضاً.

كل ما هو مخلوق معرّض للفناء. وأيضاً، بما أن الكون موجود بسبب خير الآلهة، هذا يعني أن الآلهة دائماً خيّرة وأن العالم دائماً موجود، مثلما أن النور يتواجد أبداً مع الشمس والنار، ومثلما أن الظلّ يتواجد أبداً مع الجسد.

من الأجسام الموجودة في الكون، بعضها يحاكي الوعي ويتحرّك في مدارات؛ بعضها يحاكي الروح ويتحرك بخطوط مستقيمة، النار والهواء إلى الأعلى، المياه والتراب إلى الأسفل. من تلك التي تتحرّك في المدارات، الأفلاك الثابتة تتحرّك من الشرق، أما السبعة فيتحرّكون من الغرب، وهذا لأسباب مختلفة متعلقة بإنشاء التوازن المثالي في الخليقة بحركة الأفلاك.

باختلاف الحركة، طبيعة الأجسام (الفلكية) لا بدّ لها من أن تكون مختلفة أيضاً؛ ولذلك الأجرام السماوية لا تحرق أو تجمّد ما تلمسه، أو تفعل أي شيء آخر مرتبط بالعناصر الأربعة.

بما أن الكون كروي – دوائر الأبراج تثبت ذلك – وفي كل كرة، "الأسفل" يعني "باتجاه المركز"، ولأن المركز هو النقطة الأبعد من كل النقاط، ولأن الأشياء الثقيلة تقع "إلى الأسفل" إلى الأرض، وبالتالي يتبع ذلك أن الأرض هي مركز العالم.

كل هذه الأشياء مصنوعة بالآلهة، منظّمة بالوعي، ومحرّكة بالروح. وتحدّثنا سابقاً عن الآلهة.

---

15 هذا المقطع قد يؤدي لتشوّش بعض القرّاء حيث أن سالوست نفسه يقول أن الدميورغوس صنع العالم الحالي، وقد يكون بعض التشوّش نابعاً من الافتراض السائد بأن الإيمان بالآلهة يفترض الإيمان بخلقها للكون، وهنا تجدر الإشارة إلى أمور أساسية في مدارس الأسرار القديمة فيما يتعلّق بخلق الكون: أوّلها التمييز بين الكون – كحقيقة أزلية كبرى – والعالم الفيزيائي المادّي المتغيّر والمتعدّد الأطوار، وثانياً الدميورغوس يصنع العالم المادّي من المواد الأساسية الموجودة مسبقاً في الكون ولا يقم بخلقه من العدم كما في فلسفة الأديان السماوية، ومهمّته هي أقرب إلى التشكيل منها إلى الخلق.
أخيراً، إن لم يكن الكون قد خُلق فكيف وُجد؟ مدارس الأسرار تؤمن "بالانبثاق" لا بالخلق، أي أن الكون ينبثق كنتيجة طبيعية لحقيقة الوجود نفسها مثلما تنبثق أشعة الشمس من الشمس بسبب طبيعتها نفسها.

VIII. حول العقل والروح، ولماذا الروح خالدة.

هنالك قوّة معيّنة، لاحقة على الكينونة لكن سابقة للروح، تستمدّ وجودها من الكينونة وتكمل الروح كما تكمل الشمس العيون[16].

من الأرواح ما هو عقلاني وخالد، ومنها ما هو غير عقلاني وفانٍ[17]. النوع الأول منبثق من الآلهة الأولى[18]، والنوع الثاني مستمد من الثانية.

علينا أولاً أن نفكّر بماهيّة الروح. إنها ذلك الذي يميّز بين ما هو حيّ وما هو غير حيّ. الفارق هو في الحركة، الإدراك، الخيال، والذكاء. الروح إذاً، عندما تكون نفساً، فهي حياة الحواس والخيال؛ وعندما تكون روحاً، هي الحياة التي تتحكّم بالحواس والخيال وتستخدم الوعي.

النَفس تعتمد على تعلّقات الجسد؛ هي تشعر بالرغبة والغضب عاطفياً. أما الروح، بمساعدة الوعي، فهي تستخف بالجسد وتصارع النفس، وتصل إلى الفضيلة أو الرذيلة، بحسب ما إذا كانت منتصرة أو منهزمة (في هذا الصراع).

لا بدّ للروح من أن تكون خالدة، لأنها في الوقت نفسه تعرف الآلهة، ولا يمكن لما هو فانٍ أن يعرف ما هو خالد. الروح تنظر إلى الانشغالات البشرية كما لو أنها تشاهدها من الخارج، وتتأثر بعكس ما يؤثر بالجسد بما أنها بطبيعتها ليست جسداً. حين يكون الجسد شاب وحسن، تتخبّط الروح، لكن فيما يشيخ الجسد تبلغ الروح أعلى قوّتها.

مجدداً، كل روح خيّرة تستخدم الوعي؛ لكن لا يمكن لأي جسد أن ينتج الوعي: إذ كيف يمكن لما هو من دون وعي أن ينتج ما هو واعي؟

---

16 بعبارة أخرى، نحن نستطيع أن نرى بسبب وجود النور في العالم لأن عملية الرؤية فيزيائياً، هي استقبال انعكاس الضوء على الأشياء بأعيننا، ولذلك الشمس تكمل العينان. هذه القوّة التي يتحدّث عنها سالوست هنا، التي تنبثق من الكينونة وتسبق انثباق الروح، هي شمس الوعي الذي يتيح للكينونة أن تدرك نفسها ويتيح للروح أن ترى.

17 ليس مقصوداً هنا أنه هنالك أنواع مختلفة من الأرواح في الوجود، بل المقصود أن المكوّن الروحي من الإنسان له جزءان: جزء خالد مستمدّ من جوهر الوجود (الكينونة، الوعي، الروح)، وجزء فانٍ منبثق عن الجانب الأكثر مادية من الوجود – وهو ما يشار إليه عادة في مدارس الأسرار بالأجساد الطاقوية المختلفة مثل النفس والشخصية والجسد الأثيري وما شابه. في الأفلاطونية المحدثة، يتم ترجمة ذلك بالإنكليزية بتعبيري: Rational Soul (الروح العقلانية)، وIrrational Soul (الروح غير العقلانية)، لكن هذه الترجمة غير دقيقة للمعنى الأصلي لأن المقصود بهذا التعبير أساساً هو "الروح المريدة أو المفكّرة" التي تخضع للإرادة (الكينونة) والروح "العاطفية" التي تخضع للرغبات الأرضية. في مدارس الأسرار، الجزء الأول من الروح هو الجزء الخالد الذي يراكم التجارب والإدراك ويتقمّص من حياة لأخرى، فيما الجزء "الأرضي" من الشخص، كالشخصية والطبع والرغبات يشكّل ما يُعرف بـ"جسد الرغبات" أو الروح الفانية المؤقتة التي تحكم حياة معظم البشر خلال حياتهم.

18 أي الآلهة المتجاوزة للكون المسؤولة عن الكينونة، الوعي والروح.

مجدداً، فيما تستخدم الروح الجسد كأداة، هي ليست منه؛ تماماً كما أن المهندس ليس من آلاته وأدواته رغم أن العديد من الآلات تتحرّك من دون أن يلمســـها مهندس. وإن كانت الروح مجبرة غالباً على ارتكاب الأخطاء بسبب الجسد، فهذا ليس مفاجئاً. لأن الفنّ لا يمكن أن يُنجز عمله إن كانت الأدوات غير فعّالة.

IX. حول التدبير الإلهي والقدر والنصيب.

الواقع هو كافٍ لإظهار عناية الآلهة. إذ من أين يأتي نظام العالم إن لم يكن هنالك قوّة منظِّمة؟

ومن أين تأتي حقيقة أن كل الأشـــياء لها غاية: مثلاً، النَفس موجودة لكي يكون هنالك إحســـاس، والروح لكي نتمكن من فهم العالم.

يمكن للشخص أن يستنبط نفس النتائج من دلائل العناية الإلهة في الطبيعة: مثلاً العينان شفافة لكي تكون قادرة على الرؤيا؛ الأنف فوق الفم لكي نتمكّن من تمييز الأطعمة ذات الرائحة النتنة؛ الأســـنان الأمامية حادة لقطع الطعام، والأسنان الخلفية واسعة لمضغها.

سـنجد أن كل جزء من كل غرض مرتّب وفقاً لمبادىء مشـابهة. من المسـتحيل أن يكون هنالك عناية إلهية في هذه التفاصـــيل الأخيرة وألا يكون هنالك أيّ منها في المبادىء الأولى (للوجود). ثم أن فنون التنبؤ والشـــفاء، والتي هي جزء من الكون، تأتي من العناية الخيّرة للإلهة.

بوجود كل هذه العناية بالعالم، علينا أن نعتقد أن الآلهة تقوم بها من دون عمل أو فعل إرادي من جانبها.

فالأجســام التي تمتلك القوّة تنتج آثارها بمجرّد وجودها: مثلاً، الشــمس تعطي النور والدفء بمجرّد وجودها، وهكذا دواليك بل أبعد من ذلك: العناية الإلهية تفعل (في الوجود) من دون جهد منها ولخير كافة الأشـــياء التي انبثقت عنها.

هذا ما يحلّ معضلة الأبيقوريين[19]، حيث أن المقدّس لا يعاني من مشكلة بنفسه ولا يسبب المشاكل للآخرين.

---

[19]معضلة الأبيقوريين: الأبيقورية هي مدرسة فلسفية تتحدر من الفيلسوف اليوناني أبيقور 340ق.م – 270 ق.م، والتي كانت تؤمن بأن الآلهة لا تتدخل في العالم، في ما أصبح يُعرف بالمعضلة الأبيقورية: إن كانت الآلهة كلّية العلم، فهي تعلم بمعاناتنا، وإن كانت كلّية الخير فهي لا تريد لنا أن نعاني، وإن كانت كلّية القدرة فهي قادرة على إنهاء المعاناة، وبذلك المعضـلة هي أن المعاناة موجودة في العالم، ما يعني بالنسـبة للأبيقوريين أن الآلهة إمّا غير موجودة أو غير مكترثة أو ناقصـة المعرفة والخير والقدرة.
الأفلاطونيين المحدّثين قاموا بحلّ هذه المعضـلة الفلسـفية بإشـارتهم إلى أنه لا يوجد شـرّ مطلق وأصـلي وجوهري في الكون، فالكوّن خيّر بطبيعته، وما نراه من معاناة على المستوى البشـري هو نابع من مشـاركة البشر بالقدرة الإلهية واكتسـابهم القدرة على إلحاق الضرر بأنفسهم وغيرهم وهو بالتالي شرّ نسبي على المستوى البشري ويشكّل ضرورة في عملية سموّ الأرواح، وليس شـراً كونياً على مستوى الوجود، حيث أن لا شـيء في الوجود يتم تدميره أو التسـبب بمعاناته بشـكل أزلي بسـبب الشرّ البشري، فكل شيء خاضع للدورات الإلهية وللولادة والتحوّل والموت.

العناية غير المرئية للآلهة، الموجّهة للأجساد وللأرواح اسمها القضاء؛ لكن ما هو من الأجساد (حصراً) وفي الأجساد (حصراً) فهو مختلف عنها، ويسمّى بالقدر، أو هيمارمين[20]، لأن سلسلة الأسباب هي أكثر وضوحاً في حالة الأجساد؛ وفي سياق التعامل مع حقائق القدر اكتشف البشر علم "الرياضيات".

لذلك، الاعتقاد أن المخلوقات البشرية، وخاصة بتركيبتها المادية، محكومة ليس فقط من قبل القوى السماوية فحسب لكن أيضاً عبر الأجرام السماوية، هو اعتقاد منطقي وحقيقي.

اللوغوس يظهر أن العافية والمرض، الثروة وسوء الحظ، تظهر بحسب درجة بُعدنا عن المصدر. لكن إن قمنا بنسب أفعال البشر الشريرة وشهواتهم للقدر، نكون بذلك قد جعلنا أنفسنا خيّرين وجعلنا الآلهة سيئة، إلا إن كنا نعني (بهذا الافتراض) أن كافة الأشياء الموجودة هي لخير العالم ولخير أولئك الذين هم في (وحدة) مع الطبيعة، وأن التعليم السيء أو ضعف معيّن بطبيعتهم غيّر أقدارهم الجيّدة للأسوأ، مثلما أن الشمس، التي هي خيّرة لكلّ شيء، يمكن أن تكون مضرّة لشخص يعاني من التهاب العين أو الحمّى.

لماذا إذا يقوم الماساكتيّون[21] بأكل آبائهم، ويمارس اليهود الختان، ويحافظ الفارسيون على نظام تراتبية الطبقات؟ لماذا يقوم المنجّمون، فيما يحذّرون من أن زحل والمرّيخ لهما أثر خبيث، بالقول أيضاً أنهما خيّرين وينسبون إليهما الفلسفة والملكية والقيادة والثروة؟

إن كانوا (المنجّمون) يتحدّثون عن المثلثات والمربّعات، أليس من السخافة أن تكون طبيعة الآلهة متغيّرة بحسب وضعيتهم في الفضاء فيما تبقى الفضيلة البشرية نفسها في كلّ مكان؟

أيضاً، الاستدلال بالنجوم لتوقّع الرتبة العالية أو المتدنّية لوالد الشخص الذي تتم قراءة طالعه، يعلّمنا أن (الأجرام السماوية) لا تحدد مجرى الأمور دائماً بل أحياناً تشير إلى احتمالاتها فقط، إذ كيف يمكن للأشياء التي سبقت الولادة أن تكون مشروطة بالولادة؟[22].

إلى ذلك، كما أنه هنالك قضاء وقدر متعلّق بالأمم والمدن، هنالك أيضاً (قضاء وقدر) متعلّق بكل فرد، وهنالك أيضاً نصيب، الذي يجب أن نعالجه تالياً.

قوّة الآلهة الخيّرة هذه التي تنظّم الأشياء غير المتناسقة مع بعضها البعض، والتي تجري بعكس التوقّعات، يسمّيها البعض النصيب أو فورتونا[23]، ولهذا السبب يتم تبجيل هذه الإلهة بشكل علني في المدن؛ فكل مدينة

---

[20] إلهة القدر والمصير في الدين اليوناني القديم.

[21] قبيلة إيرانية قديمة.

[22] هذا المقطع المكتوب بطريقة صعبة للغاية من سالوستيوس، يفترض مجدداً أن القارىء ملمّ بالنقاشات والكتابات الفلسفية في زمانه، لكنّه بالنسبة لنا نحن الذين نقرأ هذا النص بعد آلاف الأعوام، قد يكون المعنى المقصود هنا غامضاً جداً.
ما يقصده سالوستيوس هو شرح إضافي لنظرة الأفلاطونية للقضاء والقدر: القضاء هو في طبيعة الأمور ولا يمكن تغييره، مثلما أنه لا يمكن لبشري أن يختار شكله وطبيعة جسمه وجوهر روحه، أما القدر فهو الأمور الحياتية التي تبدو أيضاً كأنها خارج إرادة الشخص – مثل مكان ولادته وأهله وشخصيته ومهنته ومركزه الاجتماعي – لكنها خاضعة للتغيير والتبديل. القضاء ثابت أما القدر فهو احتمال متحرّك، ولذلك يمكن لزحل والمرّيخ أن يكون لهما تأثير سيء على بعض الأماكن والأزمنة والأشخاص وتأثير جيّد على أماكن وأزمان وأشخاص آخرين، فزحل والمرّيخ هما ثابتان لا يتغيّران بجوهر كلّ منهما، لكن أقدار الأماكن والأزمان والأشخاص تتغيّر بحسب مجموعة متحرّكة من العوامل (منها العمل الذي يقوم به الشخص نفسه)، ولذلك يختلف التأثير رغم ثبات الآلهة، ويختلف القدر رغم ثبات القضاء. أمّا القدرة على تغيير القدر، فاسمها النصيب.

[23] فورتونا هي إلهة الحظّ والنصيب في الديانة الرومانية. يتم تصويرها على أنها محجّبة وعمياء، وتعتبر بمثابة تجسيد الحظّ والنصيب.

تتألف من عناصر غير متسقة. القدرة (على تسيير النصيب للعالم الواقع) دون القمر هي لفورتونا، بما أن لا شيء فوق القمر يمكن أن يحدث عبر فورتونا[24].

إن كانت فورتونا قادرة على جعل شخص شرير ميسوراً وشخص خيّر فقيراً، ليس هنالك من حاجة للتساؤل. فالشرير يرى الثروة على أنها كلّ شيء، فيما الخيّر يراها لاشيء. والنصيب الجيّد للشرير لا يأخذ منه شرّه، فيما الفضيلة وحدها ستكون كافية للخيّرين.

X. حول الفضيلة والرذيلة

تعتمد عقيدة الفضيلة والرذيلة على مبادىء الروح. حين تدخل النفس إلى الجسد وتنتج بشكل مباشر الصراع والرغبة، تقوم الروح، التي تملك السلطة على كلّ هذه الأمور، بجعل نفسها مثلثة الأضلاع، مؤلفة من (العقل) الوعي، الصراع، والرغبة.

الفضيلة في ميدان الوعي هي الحكمة، وفي ميدان الصراع هي الشجاعة، وفي ميدان الرغبة هي الاعتدال؛ وحكمة الروح بأكملها هي العدالة.

يعود للوعي أن يحكم بما هو صحيح، وللصراع بطاعته للعقل أن يحتقر الأشياء الكريهة، وللرغبة أن تسعى لا لما هو مرغوب به ظاهراً، لكن، لما هو مرغوب للوعي.

حين تكون الأمور على هذا المنوال، يكون لدينا حياة عادلة؛ لأن العدالة في الأشياء المتعلّقة بالمادّيات ليست سوى جزءًا صغيرًا من الفضيلة.

بالتالي، نجد أنفسنا أمام أربع فضائل متوافرة في الرجال المدرّبين بشكل صحيح، لكن في صفوف غير المدرّبين، يمكن أن نجد شخصاً يمتلك الشجاعة لكنه غير عادل، أو معتدلاً لكنه غبي، أو متعقّل لكن من دون مبادىء. بالفعل، لا يجب تسمية هذه الصفات بالفضائل حين تكون فارغة من الوعي وغير مكتملة ومتواجدة بمن هم غير واعين.

يجب اعتبار الرذيلة في الأشياء التي تتألف من العناصر المتعارضة (مع الفضائل): في الوعي، إنها الجنون، وفي الصراع، هي الجُبن، وفي الرغبة، الإسراف، وفي الروح بأكملها، الظلم.

يمكن انتاج الفضائل عبر المؤسسات الاجتماعية الصحيحة والتربية والتعليم الجيّدان، والرذائل بالعكس.

---

24 هذه الجملة التي تبدو غامضة هي إشارة لمجالات تأثير الآلهة، وتعني أن النصيب تتم صناعته في العالم المادي المؤلف من العناصر الأربعة (النار، الهواء، التراب، المياه)، أما التأثيرات الكبرى للأفلاك – والمتعلّقة بأمور أبعد وأعمق من مجريات الحياة اليومية للأفراد والمجتمعات – فليس لآلهة النصيب من قدرة عليها.

XI. حول التنظيم الاجتماعي الصحيح والخاطىء

المؤسسات تعتمد أيضاً على الطبيعة المثلّثة الأضلاع للروح. الحكّام متناظرون مع الوعي، والجنود مع الصراع، وعامة الناس مع الرغبات.

حيث تكون كافة الأشياء خاضعة للعقل ويحكم الأمة الرجل الأفضل فيها، تكون مملكة؛ وحين يحكم أكثر من شخص واحد وفقاً للعقل والصراع، تكون ارستقراطية؛ وحين تكون الحكومة وفقاً للرغبات وتعتمد المناصب والألقاب على المال، فيشكّل ذلك ما يسمّى تيموقراطية[25].

أما أضداد ذلك فهي: للمملكة، الطغيان، لأن المملكة تتبع إرشاد العقل في كافة الأمور أما الطغيان فلا يتبع العقل بشيء؛ للأرستقراطية، الأوليغارشية، حيث لا يحكم الأفضل ولكن قلّة من أسوأ الناس هي التي تحكم؛ وللتيموقراطية، الديمقراطية، حيث ليس الأغنياء من لديهم كل السلطة بل عامة الناس[26].

XII. في أصل الأشياء الشريرة وكيف أنه لا يوجد شرّ أصلي في العالم

الآلهة بما هي خيّرة وصانعة لكل الأشياء، كيف يمكن للشرور أن تكون موجودة في العالم؟

ربما من الأفضل أولاً أن نقول أنه بما أن الآلهة خيرة وصانعة لكل الأشياء، لا يمكن أن يوجد شرّ أصلي (في العالم)، وهو يظهر فقط عند غياب الخير؛ مثلما أن الظلمة بحد ذاتها غير موجودة وتظهر فقط عند غياب النور.

لو كان الشرّ موجوداً، يجب أن يكون موجوداً إمّا في الآلهة أو في الوعي أو في الأرواح أو في الأجساد.

الشرّ غير موجود في أي إله لأن كل الآلهة خيّرة.

الشرّ لا يمكن أن يكون موجوداً في الوعي لأن الشرّ هو غياب الوعي، وحين يتحدّث أحدهم عن "ذهن سيء" فهو يعني عقلاً من دون وعي.

---

25 التيموقراطية هي النظام الذي تحصر فيه المشاركة بالشؤون العامة والحكومة بأصحاب الأملاك.

26 موقف سالوستيوس المعارض للديمقراطية هنا قد يفاجأ البعض لكنّه يتّفق مع أفلاطون ومعظم المدارس الفلسفية القديمة التي لم تجد الديمقراطية أمراً مرغوباً به واعتبرتها حكم الغوغاء وعاطفة الجموع. رغم ذلك، يختلف سالوستيوس هنا عن النظرة الأفلاطونية لأنظمة الحكم، حيث أن أفلاطون كان يرى أن أنظمة الحكم الملكي والتيموقراطية هي أيضاً أنظمة حكم غير عادلة وغير متسقة مع النظام الكوني، وكان أفلاطون يدعو لنظام جديد في كتابه الشهير "الجمهورية"، في ما عُرف لاحقاً بـ"حكم الفلاسفة" وهو نظام ارستقراطي تخصّصي مبني على الاستحقاق والخبرة (لا على الوراثة كما حال الأنظمة الأرستقراطية السائدة في زمانه). من الأرجح أن النظرة الإيجابية لسالوستيوس للنظام الملكي والتيموقراطية هو أن انتماء سالوستيوس الروماني تفوّق هنا على انتماءه للحكمة.

إن افترضنا أن الشرّ موجود في الروح، ذلك يعني أننا نجعل الروح أدنى منزلة من الجسد لأنه لا يوجد جسد شرّير بذاته. وإن افترضنا أن الشر مصنوع من اجتماع الروح بالجسد، فذلك غير معقول لأنه كيف يمكن أن يكون كلّ منهما خيّران حين يكونا منفصلان ثم يخلقان الشرّ حين يجتمعا[27].

فلنفترض أنه هنالك قوى روحية شرّيرة[28]: لو كانت قوّتهم مستمدّة من الآلهة، فلا يمكن لهم أن يكونوا أشرار؛ وإن كانت مستمدّة من أماكن أخرى، فهذا يعني أن الآلهة لا تصنع كل شيء. إن كانت الآلهة لا تصنع كل شيء، فهي إما تريد ذلك لكنّها غير قادرة عليه، أو قادرة عليه لكنّها لا تريده والحالتان تتعارضان مع فكرة الألوهية.

يمكننا أن نرى بالتالي، من هذه الحجج، أنه لا يوجد مصدر جوهري وأصلي للشرّ في العالم.

الشرّ يظهر فقط في أفعال البشر، ولكن ليس في كلّ البشر ولا بشكل دائم.

في ذلك، إن قام البشر بارتكاب الشرور لغاية الشرّ، فهذا يعني أن الطبيعة نفسها شرّيرة، أمّا إن كان الزاني مثلاً يعتقد أن الخيانة أمر سيء لكن متعته الخاصة جيّدة له، وإن كان القاتل يعتقد أن القتل سيء لكن المال الذي يحصل عليه منه هو لخيره، وإن كان الرجل الذي يرتكب الشرور بحقّ عدوّه يعتقد أن الشرّ سيء لكن معاقبة عدوّه جيّدة، وإن كانت الروح ترتكب كافة تلك الشرور بهذه الطريقة، فإن الشرور المرتكبة تم القيام بها سعياً لخير ما (ولو كانت الغاية مضلّلة).

وبنفس الطريقة التي يخيّم بها الظلام على مكان لا يوجد فيه نور، الظلام بحدّ ذاته ليس جوهراً فاعلاً، والروح كذلك ترتكب الخطايا لأنها، في سعيها إلى خير معيّن، ارتكبت الأخطاء حول ما هو جيّد، وليس لأنها بجوهرها الأساسي ليست خيّرة.

هنالك العديد من الأشياء التي تقوم بها الآلهة لوقاية الروح من ارتكاب الأخطاء ومساعدتها على الشفاء حين ترتكبها. الفنون والعلوم، الصلوات واللعنات، الأضاحي والتكريسات، الدساتير والقوانين، الأحكام والعواقب، كلها أتت إلى الوجود من أجل مساعدة الأرواح على تجنّب الأخطاء، وحين ترحل الأرواح من الأجساد، تقوم الآلهة وقوى التطهير بتنقيتها من خطاياها.

---

[27] هذا المقطع يعني بأسلوب أكثر بساطة أن الشرّ لا يمكن أن يكون له مصدر في الوعي لأن الوعي "الشرير" هو غياب الوعي، ولا يمكن أن يكون له مصدر في الروح لأنّه يعبّر عن نفسه بالجسد فيما لا يمكن لطبيعة الجسد أن تتغلّب على إرادة الروح، ولا يمكن أن يكون الشرّ موجود في الجسد لأن الجسد ليس شريراً بحد ذاته.

[28] الكلمة اليونانية الأصلية هنا هي: daemon وهي تعني كيان أو كائن طاقوي أو إلهي، لكنها لا تعني أن يكون هذا الكيان بالضرورة إلهاً. كلمة "شيطان" الإنكليزية demon تنحدر منها حيث اعتبر المسيحيون أن كل كائن روحي غير الله هو شيطان، وشاع استخدام الكلمة على هذا الأساس فيما بعد.

XIII. حول كيف صُنعت الأشياء الأزلية

في ما يتعلّق بالآلهة والعالم والأمور البشرية، سيكفي المقطع التالي لأولئك الذين لا يستطيعون اتّباع البرنامج الكامل للفلسفة لكن لديهم روح يمكن مساعدتها.

يبقى أن نشـــرح كيف أن كل هذه الأشــياء لم تُخلق يوماً ولا يمكن فصــلها أبداً عن بعضــها البعض، بما أننا أوضحنا سابقاً أن المواد الثانوية تم "صنعها" من تلك الأوّلية.

كل ما هو موجود (في الكون) صُنع عبر الابداع الفنّي، أو عبر عملية فيزيائية، أو كنتيجة لقوّة ما.

في الفنّ والطبيعة، الصـانع يجب أن يكون سـابقاً على المصـنوع: لكن الصـانع، وفقاً لقدرته، يشـكّل المصـنوع تماماً من نفسـه بما أن قدرته غير منفصـلة عنه، مثلما تصـنع الشـمس النور، وتصـنع النار الحرارة، ويصـنع البرد الثلج.

الآن إن كانت الآلهة تصنع العالم عبر الابداع، فهي لا تصنعه لكي توجده، بل تشكّله لكي يكون بشكله الحالي. كلّ ما يقوم به الفنّ هو إعطاء الشيء شكلاً، لكن ما الذي يجعل ذلك الشيء موجوداً بالأصل؟[29]

إن تم (صنع العالم) عبر عمليّة فيزيائية بحت، فكيف يمكن في هذه الحالة للصانع أن يحافظ على ما صنع؟ بما أن الآلهة غير مادية، يجب أن يكون العالم غير مادّي أيضــــاً، لكن فلنفترض أن الآلهة هي أجســـاد، من أين ســتأتي إذاً قوّة الأشــياء غير المادية؟ وإن اتبعنا هذا المبدأ (القائل أن صـــانعي الكون هم أجســـاد أو عمليات فيزيائية)، فهذا يعني أنه حين يضمحل الكون ويتفتت، لا بدّ من أن صـانعيه سيتحلّلون معه، إن كانو هم أيضـاً متشكّلين من العمليات الفيزيائية.

إن كانت الآلهة لا تصنع العالم عبر الفنّ ولا عبر العمليات الفيزيائية، يبقى فقط أنهم يصنعوه عبر القدرة.

كل ما هو موجود يستمرّ باستمرار مصدر قدرته على الوجود. لا يمكن للأشياء المصنوعة بهذا الشكل أن يتم تدميرها إلا إن اختفت قدرة ما صــــنعها: لذلك أولئك الذين يؤمنون بنهاية العالم، إما ينكرون وجود الآلهة، أو فيما يعترفون بها، ينكرون قدرتها[30].

لذلك، ما يصـنع كل الأشـياء من قدرته الخاصـة يعطيها القدرة على الاسـتمرار من خلاله. وبما أن هذه القدرة هي الأعظم، يجب ألا تكون صانعة للبشر والحيوانات فحسب، بل للآلهة وكافة القوى والكيانات.

---

29 بعبارة أخرى، مثلما أن الفنّان يعطي شكلاً لقطعة من الصخر عند نحتها، الشكل النهائي للمنحوتة هو مجرّد الشكل الخارجي للقوّة – أو الفكرة التي بدأت في مكان ما من الفنّان، ولم تبدأ بالحجر أو بعملية النحت نفســها. يســتخدم ســالوســتيوس هذه الاسـتعارة ليشـرح كيف أنّه لا يمكن للآلهة أن تكون قد شـكّلت العالم عبر الابداع الفنّي وحده، لأن هذه العمليّة الخارجية تعني وجود شيء سابق عليها يتشكّل منه الفنّ، أي الإرادة والتصوّر التي سبقت عمليّة الابداع.

30 هذا المقطع هو بشـكل أسـاسـي ردّ على المسـيحيين واليهود في زمن سـالوسـتيوس الذين كانوا يسـتخدمون نهاية العالم ويوم القيامة كفكرة أساسية للتبشير بدياناتهم.

كلّما كان هنالك مسافة أكبر بين طبيعتنا والآلهة الأولى، كلما كان يجب أن يكون هنالك قوى بيننا وبينهم، لأن كل الأشياء التي يوجد بينها مسافة بعيدة جداً، لها عدّة نقاط تتوسّط بينها.[31]

XIV. ماذا يعني أنه رغم أن الآلهة لا تتغير، يقال أنه يمكن إغضابهم أو إرضائهم.

إن كان يعتقد أحدهم أن أطروحة عدم تغيّر الآلهة هي منطقية وصحيحة، ثم يتساءل كيف يمكن للآلهة إذاً أن تفرح بالخير وترفض الشرّ، أن تغضب من الخطأة وأن تصبح صفوحة عند الرضا، الجواب هو التالي: الآلهة لا تفرح – لأن ما يفرح يتحسّر أيضاً؛ ولا هي تغضب – لأن الغضب هو عاطفة؛ ولا يمكن الحصول على رضاها بالهدايا – لأنه لو كان الأمر كذلك، لكانت (الآلهة) محكومة بالمتعة.

من التجديف الافتراض أن المقدّس يتأثر بما هو جيّد أو سيء للبشر. الآلهة هي دائماً خيّرة وتقوم بالخير طوال الوقت ولا تؤذي أبداً، حيث أنها دائماً في الحالة نفسها وهي نفسها دائماً.

الحقيقة ببساطة هي أننا، حين نكون نحن أخياراً، نتوحّد مع الآلهة بشبهنا لها؛ وحين نكون أشراراً، ننفصل عنها باختلافنا عنها. وحين نحيا وفقاً للفضيلة نتعلّق بالآلهة، وحين نصبح أشراراً نجعل من الآلهة أعداء لنا – لا لأننا أغضبناهم منّا، لكن لأن أخطائنا منعت نور الآلهة من الإشراق علينا ووضعتنا بتواصل مع قوى العقاب.

إن وجدنا غفراناً للخطايا عبر الصلوات والأضحية، فنحن لم نكتسب رضا الآلهة أو غيّرناها، بل بأفعالنا وبالتفاتنا إلى المقدّس، نكون قد شفينا أنفسنا لكي نستطيع الاستمتاع من جديد بخير الآلهة.

أمّا القول أن الآلهة تشيح بنظرها عن الشرور فهو كالقول أن الشمس تخفي نفسها عن الأعمى.

---

31 كل هذه الفقرة حول "كيف صُنعت الأشياء الأزلية" هي للحديث عن الآلهة المتجاوزة للكون: الكينونة والوعي والروح، التي تشكّل مجتمعة مصدر كل شيء والقوّة الأعظم والمواد الأوّلية للكون التي تستخدمها الآلهة الكونية لصناعة وتشكيل الكون الحالي.
المقطع الأخير الذي يتحدّث فيه سالوستيوس حول وجود نقاط تتوسّط بين طبيعتنا والآلهة الأولى، هو إشارة لأكثر من مقاربة روحية في الأفلاطونية: من ناحية أولى، البشر، بامتلاكهم للعقل والوعي، هم أقرب للآلهة الأولى مثلاً من بقية المخلوقات وعناصر الطبيعة. من ناحية ثانية، هذا المقطع يشير أيضاً إلى هرميّة مدارس الأسرار في الممارسة الروحية، حيث أن التلامذة المبتدئين يركّزون على آلهة العالم والآلهة الكونية قبل التوغّل في الآلهة المتجاوزة للكون، حيث أنهم يحتاجون إلى المزيد من نقاط الوصل لاكتساب العمق الروحي المطلوب لفهم واختبار الآلهة المتجاوزة للكون.

XV. لماذا نعطي عبادتنا للآلهة فيما هي لا تحتاج شيئاً.

هذا المقطع يجيب على السؤال حول الأضاحي والطقوس الأخرى التي تقام تكريماً للآلهة. المقدّس نفسه ليس لديه حاجة لشيء، والعبادة تتمّ لمصلحتنا الخاصة.
تصل قدرة الآلهة لكافة الأماكن ولا تحتاج سوى للقليل من التناظر[32] لكي يتم استقبالها. كافة أشكال التناظر تأتي من التماثل والتشابه؛ ولهذا السبب يتم إنشاء المعابد للتطابق مع السماء، والمذابح (للتطابق) مع الأرض، وصور الحياة تُصنع لكي تَشبه المخلوقات الحيّة، والصلوات لتتناسب مع عناصر الوعي، والأحرف الغامضة مع القوى الكونيّة اللامرئية، والأعشاب والمعادن مع المادّة، وحيوانات الأضاحي مع المكوّن اللاعقلاني من الحياة فينا.

لا تكتسب الآلهة شيئاً لنفسها من كافة هذه الأمور؛ فما الذي يمكن أن يكون مكسباً لإله؟ إننا نحن الذي نكسب بعض التواصل معهم.

XVI. حول الأضاحي والعبادات الأخرى، وكيف أننا نفيد الإنسان بذلك، لا الآلهة.

اعتقد أنه من المفيد إضافة بعض الملاحظات حول الأضاحي.

في البداية، بما أننا حصلنا على كلّ شيء من الآلهة، ومن الصائب إعطاء الواهب بعض العرفان لهداياه، نقوم بذلك على شكل نذور وتقديمات، هدايا من الأجساد كالشعر والزينة، وهدايا من الحياة بالأضحية.

ثانياً، الصلوات من دون أضحية هي مجرّد كلمات، ومع التقديمات تصبح حيّة؛ تعطي الكلمة معنى للحياة فيما الحياة تضخّ المعنى بالكلمة.

ثالثاً، سعادة كل شيء هي بتحقيق كماله؛ وكمال كل شيء هو بالتوحّد مع سبب وجوده.

لهذا السبب نصلّي للتواصل مع الآلهة. لأنه بما أن الحياة الأولى هي حياة الآلهة وللإنسان أيضاً حياة من نوعها الخاص، فيما تنشد الحياة البشرية التوحّد مع الحياة الإلهية هنالك حاجة لوسيلة توسّط.

الأشياء البعيدة عن بعضها البعض لا يمكن لها أن تتواصل من دون وسيط، والوسيلة المستخدمة في التوسّط يجب أن تتماثل مع الأشياء التي تسعى للارتباط ببعضها البعض؛ ولذلك الوسيط بين حياة وحياة يجب أن يكون حياة.

لهذا السبب يقوم الناس بالتضحية بالحيوانات؛ فقط الأغنياء هم من يقومون بهذه الممارسة الآن لكن في القدم كان الجميع يقوم بها وليس بشكل عشوائي، بل عبر تقديمات مناسبة لكل إله مع قدر كبير من العبادات الأخرى.

---

[32] التعبير المستخدم في الترجمة الإنكليزية هو congruity ويمكن ترجمته بالتطابق أيضاً، لكن نظراً لفلسفة مدارس الأسرار التي تقوم على مبدأ التناظر "كما في السماء كذلك على الأرض"، رأينا أن التناظر هي الكلمة الأدقّ في اللغة العربية.

XVII. حول أن الكون هو بطبيعته أبدي.

لقد أوضحنا سابقاً أن الآلهة لن تدمّر الكون. يبقى أن نظهر أن طبيعته بحد ذاتها هي غير قابلة للتدمير.

كل ما يتم تدميره، يدمّر نفسه بنفسه أو بسبب شيء آخر. إن كان الكون سيدمّر نفسه بنفسه، كان يجب للنار أن تحترق من تلقاء ذاتها وللمياه أن تتبخّر من تلقاء ذاتها.

إن كان تدمير الكون سيحصل عبر شيء آخر، فلا بدّ لذلك الشيء أن يكون جسماً أو قوّة غير مادّية.

حصول ذلك (التدمير) عبر القوى غير المادّية هو أمر مستحيل؛ لأن هذه القوى تحفظ الأجساد – الطبيعة مثلاً والروح – ولا يمكن تدمير جسم عبر شيء يتمثّل جوهره بالحفاظ على ذلك الجسم.

إن كان تدمير الكون سيحصل عبر جسم مادّي، فيجب أن يكون ذلك الجسم شيئاً موجوداً (منذ الآن) أو شيء غير موجود بعد. إن حصل ذلك عبر ما هو موجود: يعني أن الأجسام الكرويّة يجب أن تدمّر الأجسام الخطّية أو العكس.[33]

لكن تلك (القوى) التي تتحرّك في الأفلاك ليس لديها طبيعة تدميرية؛ وإلا لماذا لا نرى يوماً شيئاً يتم تدميره بسببها؟ وكذلك لا يمكن للقوى الخطّية أن تلمس الآخرين؛ وإلا لماذا لم تستطع القيام بذلك بعد؟

لا يمكن أيضاً للقوى الخطّية أن تدمّر بعضها بعضاً: لأن تدمير واحد منها هو خلق للآخر؛ وهذا ليس تدميراً بل تغييراً.

لكن إن كان يمكن للكون أن يتم تدميره عبر أجسام أخرى غير هذه (الموجودة الآن)، من المستحيل أن نعرف أين هي هذه الأجسام أو كيف ستظهر.

مجدداً، كل شيء يتم تدميره، يُدَمّر إما بالشكل أو بالمحتوى. الآن، إن تم تدمير الشكل لكن المحتوى بقي نفسه، فسنرى أشياء أخرى تظهر للوجود. أما إن تم تدمير المحتوى، فسيكون هنالك محتوى آخر سيأخذ مكانه. المادة الجديدة ستأتي إما من شيء موجود أو من شيء ليس موجوداً.

إن أتت ممّا هو موجود، فطالما أن ما هو موجود، موجود دائماً، فالمحتوى باقٍ دائماً.

وإن أتت المادّة (الجديدة) مما هو ليس موجوداً: فهذا أمر مستحيل لأنه لا يمكن لشيء أن يأتي مما ليس موجوداً؛ لكن فلنفترض أن ذلك حدث وأن المادّة (الجديدة) انبثقت مما ليس موجوداً؛ فهذا يعني أنه طالما

---

33 هذا يعني أنه لهذا الاحتمال أن يحصل، يجب أن تكون الأجرام السماوية قادرة على تدمير العناصر الكونية: التراب، النار، المياه، والهواء. بعبارة أخرى، يقول سالوستيوس هنا أن تدمير الكون بالقوى الفيزيائية المعروفة غير ممكن، لأن الأجرام السماوية لا تستطيع تدمير العناصر الكونية، والعناصر الكونية لا تستطيع تدمير الأجرام السماوية.
طبعاً، شكلياً، يتعارض ذلك مع بعض نظريات الفيزياء الكونية الحديثة والتي تقول أن الكون يمكن أن ينتهي بظاهرة "الانكماش العظيم" (Big Crunch)، الذي قد يتبعه "انفجار عظيم" يخلق الكون من جديد، وهكذا في دورات متتالية من العمر السرمدي للكون. قلنا أن التعارض شكلي، لأن عقيدة الزمن والكون في مدارس الأسرار هي عقيدة الدورات: أي أن الزمن والكون يتحرّكات بدورات متكرّرة لها بداية ونهاية وليس بخط مستقيم، ورغم أنه هنالك بداية ونهاية لكل دورة وهنالك حتى بداية ونهاية لكل عالم في هذه الدورات، الكون نفسه أزلي وأبدي.

هنالك احتمال لانبثاق أشياء مما هو غير موجود، فالمحتوى سيكون موجوداً. واعتقد أن الأشياء غير الموجودة التي يمكن أن تنبثق هي لانهائية.

إن قالوا أن المادة (الجديدة) لا شكل لها: كيف يمكن لذلك أن يحدث للكون بأكمله فيما هو لا يحدث لأي شيء آخر فيه؟ ثانياً، هذا الافتراض (أنه يمكن أن يكون هنالك مادة أو محتوى من دون شكل) لا يدمّر وجود الأجسام بل جمالها فقط.

إلى ذلك، كل ما يتم تدميره يتحلّل للعناصر التي أتى منها، أو يختفي إلى اللاوجود. إن عادت الأشياء للعناصر التي أتت منها، فهذا يعني أنه سيكون هنالك غيرها: فكيف أتت هي إلى الوجود من الأصل؟

أمّا إن تم تدمير ما هو موجود واختفى إلى اللاوجود، فما الذي يمنع من حصول ذلك للآلهة نفسها؟ وهو شيء غير معقول. حتى ولو أن قوّة الآلهة منعت حدوث ذلك (لنفسها)، فهي ليست قدرة إلهية حين لا يستطيع المرء أن ينقذ شيئًا سوى نفسه. كذلك، من المستحيل لما هو شيء أن يأتي من اللاشيء وأن يرحل نحو اللاشيء.

مجدداً إن تم تدمير العالم، يجب أن يتم دماره وفقاً للطبيعة أو بعكس الطبيعة. حدوث ذلك بعكس الطبيعة مستحيل، لأن ما هو عكس الطبيعة ليس أقوى من الطبيعة نفسها. إن حدث ذلك وفقاً للطبيعة، لا بدّ أن يكون هنالك طبيعة أخرى قادرة على تغيير طبيعة الكون لا تظهر حالياً[34].

مجدداً نقول أن كل ما هو قابل للتدمير في الطبيعة يمكننا أن نقوم بتدميره بأنفسنا. لكن لم يستطع أحد أن يدمّر أو يغيّر طبيعة الكون الكروي. والعناصر، فيما يمكن أن تتغيّر، لا يمكن أن تتدمّر. كل ما هو قابل للتدمير يتغيّر ويشيخ لأنه خاضع للوقت، لكن الكون في كافة هذه السنوات بقي من دون تغيير.

بعد قولنا كل هذه الأمور لمساعدة أولئك الذين يحتاجون لحجج قوية، أصلّي للكون نفسه لكي يكون رؤوفاً معي.

XVIII. حول لماذا هنالك رفض للآلهة، وأن الآلهة لا تنزعج من ذلك

لا يجب لحقيقة أن رفض الآلهة هو أمر يحدث في مناطق معيّنة من الأرض وسيحدث مرّات كثيرة بعد في المستقبل، أن يؤثّر على ذهن الحكيم: لأن هذه الأشياء لا تؤثر على الآلهة، مثلما أن العبادة لا تفيدهم؛ ولأن الروح، بسبب جوهرها المتوسّط (بين الآلهة والعالم)، لا يمكن أن تكون محقّة دائماً؛ ولأن العالم بأكمله لا يمكن أن يستمتع بالعناية الإلهية لكافة الآلهة بالتساوي طوال الوقت، حيث أن بعضه يحصل عليها للأبد فيما بعضه يحصل عليها بعض الوقت، وبعض الأجزاء (تحصل عليها) عبر (الآلهة) الرئيسية، وبعضها عبر (الآلهة) الثانوية. مثلما أنه يمكن للذهن أن يستمتع بكافة الحواس فيما لا تختبر بقية أجزاء الجسد سوى حاسة واحدة.

---

34 سالوستيوس يعني هنا أن أي تدمير يتبع القوانين الطبيعية، وإن ظهر أنه لا يتبع القوانين الطبيعية فهو بالتأكيد يتبع قوانين طبيعية لا نعرفها بعد، وفي الحالتان، هنالك جوهر أو طبيعة موجودة في الكون وليس فراغاً بعد أي دمار.

لهذا السـبب ربّما، قام أولئك الذين عيّنوا أيام الاحتفالات بتعيين أيّام للحرمان أيضـاً، حيث يتم إيقاف العمل ببعض المعابد، وبعضها يُغلق كلياً، فيما بعضها يزيل زينته، في كفارة عن هذا الضعف في طبيعتنا.

من الممكن أيضـاً أن رفض الآلهة هو نوع من العقاب: يمكننا أن نعتقد أن أولئك الذين عرفوا الآلهة لكن أهملوها في حياة سابقة، قد تم حرمانهم من معرفتها بالكامل في حياة أخرى.

أيضاً، أولئك الذين قابلوا بعبادة ملوكهم على أنهم آلهة استحقوا عقابهم بخسارة كامل معرفتهم بالآلهة.

XIX. لماذا لا يتم عقاب الخطأة بشكل فوري.

لا داعي للمفاجأة إن لم تجلب تلك الخطايا وغيرها عقاباً فورياً على الخطأة. لأن عقاب الشرّ ليس مهمّة القوى الروحية، بل إن الروح هي من تستجلب الحكم على نفسها.

أيضاً، ليس من الصائب أن يمكن للصابرين الحصول على كلّ شيء في وقت قصير[35]. وأيضاً، هنالك حاجة للفضيلة البشرية. لو كان العقاب يتبع الخطيئة فوراً، كان البشر سيحسنون التصرّف بسبب الخوف، لا بسبب الفضيلة.

تُعاقب الأرواح حين ترتحل من الجسد، بعضها تتجوّل بيننا، وبعضها يذهب إلى أماكن باردة أو حارّة من العالم، وبعضها يخضع للمضايقات من الكيانات الروحية.

في كافة الظروف، هم يعانون من عواقب تصرّفات النَفس التي ارتكبوا عبرها أخطائهم. بسبب ذلك، يستمرّ ظليل الجسد[36] الذي يُرى أحياناً حول القبور، وخاصة حول قبور الأشرار[37].

---

35 لأن الحصول على كل شيء بوقت قصير أو بسهولة لا يؤدي إلى تعلّم الروح الدروس التي يجب أن تتعلّمها ولا لنموّها بشكل كافٍ.

36 الظليل في مدارس الأسرار هو الجسد الطاقوي الذي كان يشكّل انعكاساً أو مرافقاً للجسد الفيزيائي خلال الحياة، وهو في العقيدة الباطنية أبطأ في التحلّل من الجسد الفيزيائي ولذلك يمكن أن يظهر كظلّ أو شبح بعد أسابيع أو سنوات من موت صاحبه، وخاصة إن كان الشخص قضى بشكل أليم أو عاش حياة فيها قدر كبير من المعاناة أو العاطفة.

37 عقيدة العقاب الذي يأتي بعد الموت في مدارس الأسرار لها عادة وجهان: وجه للعامة والتلامذة المبتدئين، ووجه باطني للخاصة والتلامذة المتقدمّين. في الوجه الخارجي لها، تقول هذه العقيدة أن الروح تُعاقب أو تُكافأ بعد الموت بعيش أسوأ كوابيسها أو أفضل أحلامها للحياة التي خاضتها وانتهت، أما في الوجه الباطني للعقيدة، فهذا العقاب والمكافأة هو مجرّد وهم أخير يعيشه الذهن الفردي لمساعدته على إكمال قبوله لفناء الجسد والحياة السابقة وهضم الدروس والعبر الذي يجب أن يتعلّمها منها قبل العودة مجدداً بجسد جديد في دورة التقمّص.

XX. حول تقمّص الأرواح، وكيف يقال أن الأرواح يمكن أن تتقمّص في الوحوش البرّية

إن تقمّصت الروح في كائن واعي، تصبح ببساطة روح ذلك الجسد. لكن إن قامت الروح بالتقمّص في وحش برّي، فهي ترافقه من الخارج، مثلما ترافق القوى الإلهية الإنسان، لأنه لا يمكن أن يكون هنالك روح واعية في مخلوق غير واعي[38].

التقمّص يمكن إثباته بالميول والتشوّهات الخلقية للبشر. إذ لماذا يخلق البعض عمياناً، وغيرهم مشلولين، وغيرهم بمرض ما تعاني منه الروح نفسها؟ مجدداً، الواجب الطبيعي للأرواح هي أن تقوم بعملها من خلال الجسد؛ فهل نعتقد أن الأرواح حين ترتحل من الأجساد تقضي الأبدية بالفراغ؟

مجدداً، إن كانت الأرواح لا تدخل أجسادنا مرّة أخرى، فيجب أن تكون لانهائية من حيث العدد أو أن الآلهة تقوم بخلق أرواح جديدة طوال الوقت. لكن لا يوجد شيء لانهائي في الكون؛ لأنه عندما يكون المجموع محدداً، لا يمكن أن يوجد جزء لانهائي فيه.

ولا يمكن إنشاء أرواح جديدة أيضاً طوال الوقت أيضاً، لأن كل ما يحتاج إلى خلق من جديد طوال الوقت لا بدّ له من أن يكون ناقصاً. وبما أن الكون منبثق من مبدأ كامل، فلا بد للروح نفسها أيضاً، أن تكون كاملة.

XXI. حول أن الأخيار سعداء، الأحياء منهم والأموات

الأرواح التي عاشت بالفضيلة هي سعيدة بشكل عام، وحين تنفصل عن النَفس وتُجعل نقية من المادة كلياً، تتواصل مع الآلهة وتنضم لهم في تسيير الكون بأكمله.

رغم ذلك، تلك الأرواح لم تسعى وراء هذه السعادة، لأن الفضيلة بحد ذاتها، وبهجة ومجد الفضيلة، والحياة التي تُعاش من دون غمّ ومن دون سيّد، هي كافية لسعادة أولئك الذين أخذوا على أنفسهم العيش وفقاً للفضيلة ونجحوا بتحقيق ذلك.

[انتهى]

---

38 بعبارة أخرى، يقول سالوستيوس هنا أنه لا يمكن لروح تقمّصت بإنسان أن تتقمّص بحيوان في حياة تالية، وهذه هي العقيدة التقليدية في مدرسة الأسرار إذ لا يمكن للوعي أن يعود للخلف بعد التفتّح، لكن هنالك استثناءات نادرة للأرواح التي ارتكبت شرور لا يمكن تخيّلها.